د. مولاي بالحميسي

البحر والعرب في التاريخ والأدب

دراسة

لا يمتطي المجد من لا يركب الخطرا

ولا ينال العلى من قدم الحذرا

و من أراد العلا عفوا بلا تعب

قضى ولم يقض من إدراكها وطرا

(صفي الدين الحلي)

د. مولاي بالحميسي

البحر والعرب في التاريخ والأدب

- دراسة -

مـدخل

متى بدأت قصّة البحر والعرب؟ وكيف نظروا إليه قديماً وتعاملوا وما هو حجم هذا السائل في أدبهم وكيف انبنى حكم الغربيين وكيف عللوه؟ سؤال يبـدو غريباً لمن حاول اكتشاف الصورة الحقيـقية والإجابة المقنعة.

لقد زعم بعض الغربيين ممّن استهواهم موضوع البحر أن العرب مشارقة أو مغاربة يشمئزّون من هذا المتسع حتىّ نفروا التعامل معه وهابوه ولا يركبونه إلا مكرهين.

واحتجوا على ذلك بقول عمر بن الخطاب - إن صدقا و إن كذبا- لما فتح المسلمون مصر فكتب لعمرو ابن العاص أنْ "صفْ البحر فكتب إليه "إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف، دود على عود" فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه.

وذكروا قصة عرفجة بن هرثمة الأزدي سيّد بجيلة لمّا أغزاه الخليفةُ عمانَ فبلغه غزوه في البحر فأنكر عليه وعنّفه أنّه ركب البحر للغزو.

وقال بعض الغربيين الجاهلين لتاريخ الإسلام " فهم (أيّ العرب) بدو، أصحاب خيل وماشية وإبل يبحثون عن الزّرع والضرع والكلإ ويجتازون من أجل ذلك الفيافي والصحاري ويتحدون الكثبان المحرقة والزوابع الخانقة وسَمـوم الحرّ، ولكنّـهم لا يرتاحون للبحـر العجّـاج، المتلاطم الأمواج وسواءٌ أكانوا رحّلا أو حضـراً فهـم لا يميلون لركوب السّفن وليست لهم مواهب أو مؤهلات للملاحة. [1]

ونُسِب للسّلطان العلوي مولاي اسماعيل (1672هـ-1727م) قوله: والله لو كان العرب أناسا يقاتلون بحراً ويركبون السّفن لما تركنا قرصانا واحداً من الإنكليز يعبر مضيق

1- وزعم أحد كتابهم: ..Les Arabes ont une répugnance sans borne pour les flots
La phobie du large.. chameliers, ils préféraient les dunes de sable à la houle dont ils redoutaient la colère. Blédars, par essence, cavaliers, bergers, nomades, sédentaires et sans vocation à la navigation...
(Charasse le Maghreb et la mer, Revue Marseille, N 104, pp 25-71 .-1972

جبل طارق، ولكنّ العرب لا يعرفون سوى ظهور خيلهم [2]. وقال لملك فرنسا: "يترك البحر للنصارى بما أن الله أعطى المسلمين الهيمنة على البرّ"

ثمّ ذهب هؤلاء إلى أبعد من ذلك وقالوا إنّ المؤرّخين العرب وشعراءهم وقصّاصيهم وصفوا المعارك بين القبائل وتغنّوا بجمال البيد وخلّدوا ذكرى الفرسان والأبطال والأيام ولكنّهم تجاهلوا الأزرق وما حوى من أساطيل وما خاضه رجالهم من غزوات، وما جلبوه من غنائم وخيرات.

وبقيت هذه الأفكار المسبقة سائرة راسخة رغم غرابتها وعدم صحّتها. فهل كانت سعة البحار أكثر هَوْلاً وأبعد خطراً وفزعاً من الفيافي والقفار؟

لقد نسي هؤلاء الكتاب أو تناسوا تلك السرعة العجيبة الّتي تأقلم بها العرب مع البحر فذللوا أمواجه وشقوا عبابُه واستغلوا كُنوزه.

وإذا كان الأجانب قد أخطؤوا عن قصد أم لا في الحكم على العرب وبالغوا أحيانا، فإن من دوّن للبحر وشؤونه ودوره من المسلمين لمثير للعجب فأطلقوا العنان لأقلامهم في تاريخ الدول - فهذه قامت وتلك انقرضت وأسهبوا في وصف المعارك المملة والإطاحة بغيرهم حتى غطى المصنفات بالعقم والجدب وأنهكت القراء وهم يبحثون عن وميض برق يستنيرون به للوصول إلى المفيد. فلا كتب القدماء والمحدثين وحتى الأندلسيين في عصورهم الذهبية لم يتخلوا عن المألوف اللهم إلاّ ما كتبه ابن خلدون في مقدّمته حول قيادة الأسطول. وما تبقى فهو فتات أتى عرضا وصدفة واكتفوا بالإلمام وأعرضوا عن المهم فيما يتعلق بالبحر.

فالقرآن والحديث والرحلات شرقا وغربا، ودواوين الشعر تُفَنِّد المزاعم الخاطئة وتصحّح الأخطاء الفادحة ممّا يجعلنا نقدّم هذه الصفحات - إلى الشباب خاصة - حتى يكتشفوا دوْر الأجداد، في صنع الأمجاد، ويستمتعون من جديد بتاريخ هذا البحر اللازوردي وما شاهده من نشاط وبطولات، عبر العصور وما سجّله من أحداث وحملات، كان للمسلمين فيها الباع الطويل.

---

2 - Par Dieu, si les Arabes étaient gens à faire la guerre sur mer et à monter les vaisseaux et galerès, nous ne laisserions pas passer un seul corsaire anglais dans le détroit de Gibraltar, mais c`est que les Arabes ne connaissent que le dos de leurs chevaux (Cité par R. Coindreau,les corsaires de Salé.pp.54-55)

وأمام هذا الخلل وهذا "الشح" في كتابة تاريخ عربي إسلامي كتابة متكاملة تـبرز ما للسواحل والقواعد البحرية وصناعة المراكب والمعارك فوق الماء والصراع على الهيمنة وتراجم الأميرالات - حاولنا في هذه الدراسة مسح الغبار على ما ذكر قليله فزدنا وأضفنا وقمنا باصطياد أخبار وترتيب التفاصيل والإشارات فكنا كمن يبحـث عن إبرة وسط أكوام من الخشخاش علنا نجد ضالتنا.

وللموضوع ثلاثة محاور:

خُصّص الأوّل لمكانة البحر فى الثقافة العربية نثرها وشعرها عموماً وتفـصيلاً ممّا يدلّ على سعة الموضوع وسعة الاطلاع وشغف الاستطـلاع لمن اعتـنى بجـانب من جوانب الأزرق.

كان الحافز الأول للمسلمين القرآن الكريم وما جاء فيه من قصص الأنبياء المشوّقة ثمّ ما جاء في الأحاديث الشريفة حول الجهاد البحري وما دوّنه المؤرّخون والرّحّالون وما رواه التجار المغامرون وماجادت به قرائح الشعراء وما أنجبه الخيال حتى تكون لهم هذا الرصيد اللغوي والتراث الأدبي الجدير بالمطالعة والتحليل.

واحتوى القسم الثاني على الفتوحات البحرية انطلاقا من وعي المسلمين بضرورة تذليل البحر قبل ركوبه والجهاد فيه وعلى دور الصناعة وبناء السّفن المقاتلة وتكوين البحريين وتدريبهم لتوسيع أرض الإسلام وضمّ الجزر والدّفاع عن المراسى والمدن السّاحلية وضمان أمن الملاحة وهكذا بدأت ملحمةُ البحر شـرقاً وغرباً وسُجّـلت أروع النتائج [3].

ودعّم القسم هذا بالأحاديث النبوية الشريفة تحث على الجهاد بحرا.

وعنونا القسم الثالث "بداية النهاية "مبرزين المشروع الصليبي الكبـير الرامـي إلى الاستيلاء على ممالك المسلمين وإضعافهم وما نتج عن الهجمات الشرسة من أجل الهيمنة على المتوسط ولماذا وبماذا تقدّم الصليبيون وتأخّر المسلمون وتراجعهم المحتوم رغم بعض المحاولات في مصر والأندلس من أجل صحوةٍ تصلح ما انعطب.

---

3 - يلاحظ إهمالَ شؤون البحر في برامج تدريس التّاريخ وعدم اهتمام دّارسي هده المادة الأساسية. والبلد بلد بحري، منذ القدم والأخطار المهددة تأتيه دائما من الشمال وأنجح الفتوحات الاسلامية هى التي خاضها المسلمون بحرا.

القسم الأول

البحر لغة وأدبا

البحر لغة وأدبا

1 - الرصيد اللغوي

خصّص القدماء في كتبهم ودواوين شعرهم مكانة مرموقة للبحر ولصفاته وأرزاقه وأحواله وأنواعه وأخطاره.[4]

قال بعضهم في تعريفه: البحر خلاف البرّ وسُمّي كذلك لعُمقه واتساعِه ويُقال له أيضاً اليَم [5] والمُتّسع. وكلّ نهر عظيم عندهم يُسمّى بحراً كدجْلة والفُـرات والنيـل. فإن هَدَأ وسَكن قالوا بحرٌ حصيرة وبحرٌ راكدٌ، وإنْ اضطرب قالوا بحرٌ هائج ومزبدٌ وثائرٌ. وعبَّ البحرُ بمعنى كثر موجُه وارتفع وعَلاَ. وعُباب البحر أمواجُه. وإذا زاد ماؤه ارتفاعاً قالوا مدٌّ وإن تراجع إلى الخلف قالوا جزْرٌ.[6]

وسُمّي الشاطئ أو السّاحل ريفَ البحر أو سيف البحر، أو الجرْيَة.

ويقال: أقْلد البحر عليهم: أغرقهم ويقال: خَبَّ البحرُ: هاج واضطرب وشبهت كوارث الحرب وبأمواجه الهائجة. ويُجمَع البحرُ على أبْحُر وبحار وبُحور. وإذا سافر الرّجل بحراً قالوا أبْحر. وتبحّر الإنسان في العلم واستبحَر [7] إذا تعمّق فيه وتوسّع.

---

4 - (قال ابن سعيد الأندلسي يصف بحر الجزيرة الخضراء متشوقا للعودة إليها:

بل على الخضراء لا أنفك من *زفـرة فـي كل حـين تلهب*
حيث للبحر زئيـــر حولـــها *تبصر الأغصان منه ترهب*
كان البحر ثــوب أزرق مــن *فيه للبدر طـراز مذهــب*

وقال أيضا

واليم لا يعرف ما طعمـه *إلاّ الذي وافى لأن يشربا*

5 - وقال ابن زكور الفاسي يصف لجون الجزائر:

البحر قد أبدى سنى نضرته *فهامت الأعين في بهجتــه*
قد خلع الحسن عليه حـلى — وانتظم الابـداع في لبــته
كأنّه الشمس قد نفضـت — شعاعها الأنضر في لجتــه
مـطارف العقيان قد طرزت — باللازورد الغصن من زرقته
ذكّرني عـهدا لنــا قد مضى — بأرض تطـوان على ضفته

6 - رَوَى عبد الله بن المقفع قصّة الموكّل على البحر مع الطيطاوي (من طيور البحر). قال كانت أنثى هذا الطائر تستعد للإفراخ وتبحث عن مكان أسلمَ من السّاحل. فطمأنها: فقالت إن البحر لو قدِم لذهب بفراخنا تشير إلى مدّ البحر (كليلة ودمنة ص 106).

7 - كقول الطرماح بن حكيم من شعراء الخوارج: (توفي سنة 100هـ/722م)

بمثل ثنائك يحلو المديح — وتستبحر الألسن المادحة.

قال ابن المعتز في مدح علي بن أبي طالب:

ويحر العلوم وغيظ الخصوم   متى يضطرع وهم يغلب

وفي ذوق مائه قالوا ماءٌ بحرٌ أي مِلْحٌ وأبحَرَ الماءُ إذا مَلُح ويسمّى الفَرَس الواسع الجري بحراً.[8]

وورد لفظ: "الأجودان" يقصدون به البحر والمطر ومنه قول الشاعر

إذا أبو قاسمٍ جادت يداه لنا   لم يُحمَد الأجودان البحرُ والمطرُ

كما جاء الأغْزرَان في نفس المعنى والأخضران (البحر والليل). وخاقان البحرَين (الأسود والمتوسط) لقب سلاطين آل عثمان وأوّل من لقب به سليم الأوّل.

والبحر في العروض هو ميزان الشعر لمعرفة المتزن من المختل

2- أصناف المراكب:

احتوت كتب اللغة على كل أنواع المراكب البحرية المعروفة آنذاك وعلى خصائصها وحجمها وحمولتها وطرق استخدامها فذكرت:

المركب - الجفن - الجوزي (خاص بلصـــوص البحر) - الزورق- القــارب - السفينة [9] - الحراقة [10] - (تستعمل للنار اليونانية) (feu grégeoi)- القطعة (ج قطع وقطائع) - الشيطان (الشياطين = الغربان) - الجارية (ج جوار) - الشطية -(مركب كبير في مصر لنقل الجنود والبضائع) - اللوح - الفلك [11] - الصابحة - بنات الماء - القرقور (مركب ضخم بقلوع مربعة استخدمه المجـــوس إثر غاراتـــهم على الأنـــدلس - الزو (مركب للنزهة في النهر الكبير بشبه الجزيرة) شختور (ج شخاتير) للنقل- شلندي (مركب مسطّح). الجلبة كالتي ركبها الرحالة ابن جبـير من عيذاب (جـــنوب مصر) إلى جدة قاصدا الحج فقال:

---

8 - ومنه قوله (صلعم) في مندوب فرس أبي طلحة إناً وجدناه لبحراً.

9 - قيل سميت كذلك لأنها تقشر وجه الماء وسفينة البر: الإبل

10 - وقال الطاهر بن الحسين :

عجبت لحرّاقة ابن الحسين   لا غرقِت كيف لا تغرق

وبحران من فوقها واحــد   وآخر من تحتها مطبَق

وأعجبُ من تلك أعوادُهــا   وقد مسّها كفٌ لا تورق

11 - يذكر ويؤنث ويقال للمفرد وللجمع فمن المفرد المذكر قوله تعالى " في الفلك المشحون.." ومن المفرد المؤنث قوله تعالى "والفلك التي تجري في البحر". ومن الجمع قوله تعالى " حتى إذا كنتم في الفلك وجرينا بهم..."

" والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الإنشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة إنّما هي مخيطة بأمراس (الأطناب والحبال) من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يخيط ويفتلون منه امراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل. فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها... ومقصدهم بدهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ولذا لا يصرفون فيه المركب المسماري".

3- الأسطول:

كلمة يونانية الأصل(Stolos) معناها مجموعة السفن الحربية.

يقول المسعودي: " كلمة رومية سمّة المراكب البحرية ". وعرف الأسطول شهاب الدين الخفجي (1659/1069) قال: " الأسطول هي السفن التي يسافر فيها للقتال"

ويعرف الأسطول عند الإسبان ب[12] Armadah يعرف عند العثمانيين بالدونانمة ومعناها الأسطول [13].

وقسموا الأسطول إلى مراكب سفرية (لنقل الخيل والعدد والأزواد). ومراكب قتالية مخصصة للمقاتلين والأسلحة والذخائر.

والأسطولي عندهم: هو المحارب بحرا بينما الجندي هو المحارب برا وقائد السفينة يسمى أيضا الناخوذا او ناخوذه (فارسية) ويقال البانوية (مفرد البانان) من يركب البحر للتجارة او الملاح (انظر كتاب برزق بن شهريار ق 10/4).

4- التشبيه بالبحر

لقد تسابق الشعراء في التشبيه وتفننوا في وصفهم الجود والكرم والسخاء وفي وصفهم غضب الملوك والأمراء بهذا السائل العجيب.

أ- الكرم:

إذا بالغ الرّجل في الكرم أنشدوا وأطنبوا وأفرطوا... كما قال النابغة الذبياني يمدح ملك النّعمان:

---

12 - معناها التي لا تغلب " l'invincible" سمّاها كذلك ملك إسبانيا عندما أرسل سفنه إلى إنجلترا سنة 1588. وكان على رأس الأسطول الذي احتوى على 130 سفينة حرب أميرال "سنتا كروز".

13 - قال الشريف الزهّار في مذكراته (ص 29) " توفي السلطان مصطفى وتولى بعده أخوه عبد الحميد سنة 1187 هـ فأرسل الباشا (حاكم الجزائر) الدونانمة الثالثة المؤلفة من خمسة مراكب والقبطان عليها: الحاج سليمان رحمه الله.

فأليفته يوماً يُبيدُ عدوّه　　　وبحرُ عطاءٍ يستخِف المعابراً [14]

وقال فيه أيضا:

له بحرٌ يُقمصُ العَدَوْلَى　　　وبالخُلْجِ المحمّلة الثِقــــال [15]

وقال البحتري في الخليفة العباسي المتوكل [16]

بسُرَّ مَن رالنا إمامٌ　　　تغرف من كفّه البحارُ

وقال يمدح أحمد بن دينار بن عبد الله

هو الغيث يجري من عطاءٍ ونائلٍ　　　عليك فخُذْ من صيّب الغيْث أو ذر

ولمّا تولى البحرَ والجُودُ صـنوُه　　　غدا البحرُ من أخـلاقهِ بَين أبحُـر

والشاعر في عهد المتوكل يمدح أهله:

على أنهم يوم اللّقاء ضراغِم　　　وانهمّو يوم النّوال بحور

أمّا أبو تمام فله في المعتصم العبّاسي:

هو البحر من أيّ النواحي أتيته　　　فلجته المعروف والجود ساحلِه

وقال أبو الحسن علي ابن عبد الغني الكفيف المعروف بالحصري

بيت أمـوالك بحـر　　　ما على البحر غطاء

وقال أيضا: [17]

القوم بحار مسجــورا　　　ت محفوفات بالزبـد

لم يتعدم واردهـا درر ال　　　اداب ولا درر الصفـد

وقال ابن دراج القسطلي في مدح الوزير ابن أبي عامر:

لاقت عليه من تميم ويعرب　　　شموس تلألا في العلى وبدور

من الحميريين الذين أكفهم　　　سحائب تهْمي بالنّدي وبحور

وقال أبو الطيّب المتنبي في سيف الدّولة بن حمدان:

أمير أميرٌ عليْه النّدى　　　جوادٌ بخيل بأن لا يَجُودا

---

14 - المعابر: الشواطئ المهيأة للعبور أو ما يعبر به النهر كالزوارق.

15 - يقمص: يحرك كبار السفن بأمواجه - العدولى: نسبة إلى عدولى. قرية بالبحرين - الخلج (جمع خليج) السفينة الصغيرة.

16 - المتوكل: الخليفة العاشر لبني العباس (توفي 247/861. سامراء (سر من رأي) مدينة على ضفّة دجلّة (العراق) على 100كم. شمال بغداد شيدها المعتصم العباس 836 م أهم أثارها قصر المتوكل.

17 - ابن بسام الذخيرة ص 202.

وله أيضا:

اذا طمى[18] البحرُ المحيط فقل له   دعْ ذَا فإنّك عاجزٌ عنْ حاله

- وقال علي بن الجهم في وصف الشعر السائر بين الناس:

ولكن إحسان الخليفة جـــعفـر   دعاني إلى ما قلتُ فيه منَ الشعر

فسار مَسِيرًا لشمس في كـلّ بلدة   وهبَّ هبوبَ الرّيح في البرّ والبحر

وقال ابن منقذ مبعوث صلاح الدين الأيوبي سنـة 588هـ في الخليفة الموحـدي أبي يعقوب:

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته   إلى بحر جود ما لأخراه ساحل

قطعت إليك البر والبحر موقنا   أن نداك الغمر بالنجح كافـل

ب- الغضب:

واستعانوا بالبحر في وصف غضب الملوك والأمراء فلم يجدوا أقـوى ولا أغـزر من هيجانِ هذا السّائل المخيف.

قال النابغة الذبياني في النّعمان:

يظل من خوفه الملاحُ مُعتصما   بالخيزرانة بعد الآين والنّجَد[19]

وتارة يفوق غضبُ الملك غضبَ البحر كقول أبى صلت أمية ابن عبد العزيز:

هو البحر غص فيه إذا كان ساكنا   على الدرّ واحذره إذا كان مزبدا

فإنّي رأيتُ البحَر يعثرُ بالفتــى   وهذا الذي يأتي الفتى متعمّدا

(معناه أنّ البحر يُهلك من غير قصدٍ والأمير عن تَعَمُّد).

قال شاعر يصف شبيبا الخارجي:

إنّ صاح يوما حسبت الصخر منحدرا   والريح عاصفة والموج يرتطم

وقال بن حمديس الصقلي يرد على بعض شعراء المغـرب وكان الرجل قد سافر إلى مصر ثم عاد إلى وطنه:

وفي المغرب البحر المحيط وقد علا   على نيل مصر منه مدا غـواربه

ولمّا انثنى بالجــزر أبقـى لديهـم   أحاديث تروى من صنوف عجائبه

يا فارس الشعر الذي مـات قرنـه   بموت زهير في ارتجال غرائبـه

لأصبحت مثل البحر يزخر وحــده   وإن كثر الأنهـار من عن جوانبـه

---

18 - طمى وطَمَا الماءُ: ارتفع وامتلأ

19 - الخيزرانة: ذنب المركب - الأين: التعب والفتور - النجد: العرق والكرب من خوفه يقصدُ نهرًا الفرات إذا جاش ماؤه.

ج- البحر ومحتواه:

قال ابن العريف في شأن كتاب "الفصوص" لأبي العلاء وقد ضاع الكتاب بسبب غرق حامله في نهر قرطبة:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فأجابه أبو العلاء:

عاد إلى معدنه إنّما توجد في قعر البحار الفصوص

وجمعوا في شعرهم بين الحلم والبحر وبما يطفئ العطش.

قال ابن حمديس الصقلي يمدح يحي بن تميم بن المعز صاحب القيروان.

يحسب الطود حصاة حلمه وتظن البحر نعماه ثغب 20

وكثرة الأمثال في البحر ككثرتها في الشعر

قيل: الرّجل الجواد كمجاور البحر لا يخاف العطش (؟)

وقيل أيضاً: رجل أسمحُ من بحرٍ

واستعانوا في التشبيه بمركبات البحر ومميزاته

قال امرؤ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سُدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلى

وقال أبو نواس:

وكأنّما الذّهبُ المذوب بكأسها بحرٌ يجيش بأعين الحيتان

وقال ابن المعتزّ يصف الهلال:

انظُر إليه كزوْرق من فضّةٍ قدْ أثقلته حمولة من عنْبر

4 - وصف السفن:

أصبح البحر من الأغراض التي داعبت خيالَ الشعراء فتسابقوا فيه فغطّت كثير من قصائدهم هذه الظاهرة حتى لاحظ المقري هذا الإقبال وذكر قول الفتح ابن خاقان صاحب قلائد العقيان: "وقد أطنب الناس في وصْف السفن وأطابوا وقرْطسوا القريض وأصابوا" (ص 82).

قال طرفة بن العبد البكري

كأن حُدُوجَ المالكية غَدْوَةً خلايا سفينٍ بالنواصف من دَ دِ

عدولية أو من سفين ابن يامن يجورُ بها الملاحُ طورا ويهتدي

20- الثغب = الغدير في ظل جبل لا تصيبه شمس فيبرد ماءه.

يشق حَبابَ الماء حيزومها بها كما قسم الترب المناول باليـد [21]

قال الحسن بن هانئ:

بُنيت على قدْرٍ وَلاَءم بيْـنها طبقان من قيـرٍ ومن ألواح
فكأنها والماءُ ينطحُ صدرَهـا والخيزرانةُ في يـد المـلاح
جَوْنٌ من العِقبان يُبتدر الدّجى يهوي بصوت واصطفاق جناح [22]

ولابن زاكور الفاسي [23] وصف رائع:

وقد أغدت بنا في اليمّ جاريـة سوداءُ لا تستطيع الجرْي في يَبس
كأنّها وعبابُ الماء يزعجـهـا تنص جيد مراعي للخط مختلس
كأنّ بيض نواصيها إذا انتشرت لواء صبح بدا في سدفـة الغلـس [24]

وقال أيضا:

ذات صنـع باهـر تـركبت من السابـــح والطـائـر
تجري فللماء ساق عائم درب وللرياح جنـاح طائـر حذر
قد قسمتها يد التقدير بينهما على السواء فلم تسبح ولم تطر

قال أبو عبادة الوليد (البُحتري) يصف مركبـاً حربياً وكـان أحمد بن أبي دينـار بن عبد الله "والي البحر" وغزا فيه بلاد الروم:

غَدَوْنَ عَلَى المَيْمُونِ صُبحًا،وَإِنَّمَا غَدَا المَرْكَبُ المَيْمُونُ تُحْتَ المُظَفَرِ
أَطَـلَّ بِعِطْـفَيـهِ، ومرَّ كَأنَّـمَا تَشَـرَّفَ مِنْ هَادِي حِصَانٍ مُشْهَـرِ
إِذَا زَمْجَرَ النُّوتِيُّ، فَوْقَ عَلَاتِـهِ رَأَيتَ خَطِـيباً فِي ذُؤَابَـةِ مِنْـبَرِ
يَغُضُّونَ دُونَ الإِشْتِيَامِ عُيُونَـهُمْ وُقُوفَ السِّمَاطِ لِلْعَظِيـمِ المُؤمَّـرِ
إِذَا عَصَفَتْ فِيهِ الجَنُوبُ اعْتَلَى لَهُ جَنَاحَا عُقَابٍ فِي السَّمَاءِ، مُهَجَّرِ
إِذَا مَا انْكَفَا فِي هَبْوَةِ المَاءِ خِلْتَهُ تَلَفَّـعَ فِي أَثْنَـاءِ بُـرْدٍ مُـحَـبَّرِ
وحَوْلَكَ رَكَّابُونَ لِلْهَوْلِ، عَاقَـرُوا كُؤوسَ الرَّدَى مِنْ دَارِعِينَ وحُسَّرِ
تَميلُ المَنَايَا حَيْثُ مَالَتْ أَكُفُّـهُم إِذَا أَصْلَتُوا حَدَّ الحَـدِيدِ المُـذَكَّرِ
إِذَا رَشَقُوا بِالنَّارِ لَمْ يَكُ رَشْقُهُـمْ لِيُقْلَعَ، إِلاَّ عَـنْ شِـوَاءٍ مُـقَتَّرِ

---

21 – حدوج: مركب من مراكب النساء – المالكية نسبة إلى مالك بن ضبيعة – خلايا: الخلية السفينة الكبيرة النواصف: مجاري الماء إلى البحر – دد أرض معروفة – عدولية: نسبة إلى عدولى، قرية في البحرين – ابن يامن: ملاح من البحرين – ياجور يميل – حباب الماء أمواجه – الحيزوم: الصدر.

22 – روى الأبيات المبّرد(أبو العبّاس محمد النحوي)الكامل في اللغة والأدب ج 2 ص 110.

23 – أديب وشاعر مغربي قدم إلى الجزائر سنة 1093هـ./1683م لاتمام دراسته. وعنوان الرحلة :نشر ازاهير البستان في من أجازني بالجزائر وتطوان.

24 – السدفة هي الضوء – الغلس ظلمة آخر الليل.

وقال أبو بكر الداني(ابن اللبانة) في مدح مبشر بن سليمان العامري صاحب مايورقة ويصف مناورات الأسطول في يوم المهرجان:

طارت بنات الماء فيه وريشـــها ريش الغراب وغير ذاك شـوذق×
وعلى الخليج كتـــيبة جـــرّارة مثل الخليج كلاهما يتــدفـق
وبنو الحروب على الجواري التي تجري كما تجري الجيـاد السّبّق
ملأ الكماة ظهورها وبطونـــــها فأتت كما يأتي السّحاب المُغدق
خاضت غدير الماء سابحة بـــه فكأنما هي في ســـراب أينـق
عجبا لها ما خلِت قبل عيانـــــها أن يحمِلَ الأسد الضواري زورق

وأعطوا أجزاء المركب أسماء كالهوجل (المرساة) والشراع، والمجـــذف 25 سُئل سناقدس عن المركب فأجاب: "بيت بلا أساس وقبر مؤلف"

وللرياح دورها في سير السفينة أو وقوفها، في عطـبها أو غرقـها عند الزوبعـة. قال أبو الطيب المتنبي معبّراً عن خيبة الأمـل وعدم تحـقيق ما يترجـاه الإنسـان:

ما كلّ ما يتمنّى المرءُ يُدركه تجري الرّياح بما لا تشتهي السفن

وقال آخر في كنوز البحر وما ينبغي للإنسان أن يبذل من جهود لنيلها:

يغوص البحرَ من طلب اللآلئ ويحظى بالسيادة والنّوال

د- التكيّف:

ولم يُخِف البحرُ الإنسانَ رغم هوله فأقبل الناس على العوم فيه وعلى مداعبة أمواجه وعلى تحدّي الرياح المحركة له. يحكى أن الحجاج بن يوسف الثقفي طلب من معلم ولده أن يعلّمه السباحة قبل الكتابة فإنهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم [26]. وقبله كتب الخليفة عمر إلى ساكني الأمصار " أمّا بعد فعلّموا أولادكم العومَ والفروسية.."

× الشودق: الصّقر. (عبد الواحد المراكشي. المعجب -ص 153).

25 – المجدف :خشبة طويلة مبسوطة أحد طرفيها تسير بها السفينة – الشراع ما ينصب ويرفع على المركب فتهب فيه الريح فتدفع المركب إلى الأمام.

26 – الجاحظ: البيان والتبيين ج 2 ص 179.

البحر والقرآن

ورد في الكتاب لفظ: البحر والبحران والبحار والأبحر في 34 آية ومرادفاته كاليمّ 8 والفلك 17 والسفينة 43.

وشرح المفسّرون هاتِه الآيات بالتفاصيل والتعاليق الوافرة فأثروا الرصيد الأدبي واللّغوي بالمصطلحات وبقصص الأنبياء كموسى ونوح وقصّة فرعوْن ممّا أعْطى الثقافة البحرية اتساعا وثروة فتحت أفاقاً للمسلمين. كما ركّز الكتاب على منافع البحر كالصيد والملاحة.

وأدرجنا مجموعةً من الآيات لنبرز مكانة البحر في القرآن وما لهذا السائل الهائل من دور في حياة الإنسان فذهب خوف الناس وزاد إقدامهم واتـــسع نشاطـــهم وتقـــوّى نفوذهم.

قال تعالى:

-" من آياته الجوار في البحر كالأعلام إنْ يشأ يُسكن الرّيـح فيَظللْن رواكـد على ظهره". (الشورى 33-34)

-" أو كظُلماتٍ في بحرٍ لُجيٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ ظلماتٌ بعضها فوق بعض..."(النور 40)

- " قل لو كان البحر مِداداً لكلمات ربّي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مددا" (الكهف،109)

-" ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله إنّ الله عزيز حكيم".(لقمان 27)

البحرين

-" مَرَجَ البحرين [27] يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان." (الرحمان 20)

-" هو الذي مرج البحرين هذا عذبٌ فرات وهذا مِلح أُجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً..." (الفرقان 53)

-"وإذ قال موسى لفتاه لا أبرحُ حتى أبلغَ مجْمع البحرين [28] أو أمضيَ حُقُباً.. "(الكهف 60)

---

27 - يعني مياه البحار ومياه الأنهار في الآيتين.

28 - يعني بحر فارس وبحر الروم.

اليمّ:

-" فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليمّ بأنهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين" (الأعراف 136).

-" إذ أوحينا إلى أمّك ما يوحى أنِ اقذفيه في التّابوت فاقذفيه في اليمّ فليلقه اليمّ بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبّةً منّي ولتصنع على عيْني"(طه 38-39).

-" ولقد أوحينا إلى موسى أن أسْر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يَبَساً لا تخافُ دركاً ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم" (طه،77-78).

-" وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين" (القصص،7).

-" فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ وهو مليم" (الذاريات،40).

السفينة:

-" فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتُغرقَ أهلها لقد جئتَ شيأً إمْراً" (الكهف،71).

-" وأما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كلّ سفينة غصْباً" (الكهف،79).

-" فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين" (العنكبوت،15).

الفُلْك:

-" هو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحما طريّا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون". (النحل،14).

-" وسخّر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار". (إبراهيم،32).

-" هو الذي يُسيِّركم في البرّ والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيّبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلّ مكان وظنّوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين" (يونس،22).

-" ومن آياته أن يرسل الريّاح مُبَشّراتٍ وليُذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (الروم،46).

-"الله الذي سخّر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (الجاثية،12).

-" إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنـهار والفلـك التي تجـري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيى به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرّياح والسّحاب المسخّرِ بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" (البقرة،164).

-"... وكذّبوه فأنجيناه والّذين معه في الفلك وأغرقنا الّذين كذّبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين" (الأعراف،64).

-"ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنّه كان بكم رحيما وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجّاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا" (الإسراء،66/67).

-" ألم تر أنّ الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور"(لقمان،31).

-"والذي خلق الأزواج كلّها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون" (الزخرف،12)

-" وما يستوي البحران هذا عذبٌ فراتٌ سائغ شرابُه وهذا ملح أجّاج ومن كلّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حليةً تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضلِهِ ولعلّكم تشكرون" (فاطر،12).

-"وإذا غشيهم موج كالظُّلل دعوا الله مخلصين له الدين فلمّا نجّاهم إلى البرّ فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلاّ كل ختّار كفور" (لقمان،32).

-" وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومُرساها إنّ ربي لغفور رحيم وهي تجري بهم في موج كالجبال ونـادى نوح ابنـــه وكان في معـزِلٍ يا بني اركب معنا ولا تكـن مع الكافرين" (هود، 41-42).

من القفار إلى البحار...

كان العرب في الجاهلية صنفين: رُحّل ورُعاة إبل أو تجّار كسبُهم في رحلة الشتاء والصيّف بين شمال شبه الجزيرة وجنوبها.. وعربٌ مستقرُون باليمن وحضرموت والبحرين [29] برعوا في الملاحة بحُكم موقع بلادهم على البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج العربي فاختكوا بشعوبٍ "بحرية " وأخذوا منها.

وكان لهذا النشاط أصداء في شعرهم ونثرهم وعاداتهم. ففي المعلّقات إشارات كثيرة لهذا المتّسع.

قال عمرو بن كلثوم:

ملأنا البَرّ حتّى ضاق عنّا وماءُ البحر نَملأُه سفينا [30]

وغامرت سُفنهم وأرست بالسّواحل الشرقية للقارّة السّمراء مثل زنجبَار والمحيط الهندي وسرنديب. وقد خرجت قطائع من عمان والبحرين إلى أنّ وصلت الهند وفتح العرب من السّند إلى كشمير.

ثم جاء الإسلام فحقّق للعرب وحدتهم وجعلهم أمّة متماسكة تصبو إلى الازدهار فتعددت الأسفار بحراً وزادت المبادلات واخترق النّاس الآفاق وسلكوا الطّرق البحرية انطلاقاً من البصرة وصيراف فعبادان فالخشبات [31] وثبت في القرن الرابع الهجري/

---

29 - كان العرب قبل الإسلام يطلقون اسم البحرين على جميع الشواطئ من عُمان إلى البصرة. وعُمان الشاطئ الشرقي من شبه الجزيرة. وهي بلاد سهلة كثيرة الأنهار والعيون العذبة الماء ينبطون الماء على القامة أو القامتين وتنبت الحناء والقطن على شطوط أنهارها وهي كثيرة النخل والفواكه أماّ السّر في وجود المياه بكثرة فقد كانت مياه الأمطار تغور من رمال تلك المنطقة ثمّ تنبع في البحر حلوة ومن أجل ذلك توجد في عرض الشاطئ الشرقي لشبه الجزيرة بقاع من الماء الحلو وسَطَ الماءِ المَالح.
- من البحرين إلى عُمان طريق غلب عليه الرّمل ومُنع من سلوكه فلا يصل المرء اليوم إلى عُمان الأ عن طريق البحر.
ومن ناحية النشاط والعمران قال المهلّبي،: " البحرين مدينة جليلة بها مرّسى السّفن من السّند والهند والزنج وليّس على بحر فارس مدينة أجَلّ منها.. "

30 - البيت 102 من المعلقة وتغلبُ من فيافي الشام كانوا يعبرون الفرات بقواربهم

31 - قال المسعودي:الخشبات علامات في البحر للمراكب تنتهي إليها ولا تتجاوزها خوفاً من الجزر ولئلاً تلحق الأرض. ج ة ص 230 231.

العاشر الميلادي أن السّفر إلى شمال الهند بحراً أحــسن بكثـير من طريق البرّ المــار بإيران. 32

كما جلبت إفريقية الشرقية السّفن الإسلامية مغتنمة رياح الموسم التي تُسَهّل عودتَها عندما تهُبُّ في الاتجاه المعاكس مشحونة بالذهب والعاج والعبيد. وفتحت التجارة المربحة شهية الانتقال والملاحظة فتجنّد الجغرافيون والرّحّالون والإخباريون لوصف الأقطار والبحار وتبسيط أسرارها وإبراز خصائصها وضــرورة معرفتها.

قال ابن جبير يصف مرسى مسينة بصقلية: " والبحر يعترض أمامها في الجهة الجنوبية منها، ومرساها أعجب مراسي البلاد البحرية لأنّ المراكب الكبار تدنو فـيه من البر حتّى تكاد تمسكه وينصب منها إلى البحر خشية أن ينصرف عليها. فالحمّال يصعد بحمله إليها ولا يحتاج إلى زوارق في وسقها ولا في تفــريغها إلا ما كان مرسيــا على البعد منها يسيرا. فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها وإصطبلاتها وذلك لإفراط عمق البحر فيها.

وهو زقاق معترض بينها وبين الأرض الكبيرة بمقدار ثلاثة أميال.

وعبّر المسعودى عن هذا الشغف والتعطّش: "على أن نعتذر من تقصير إنْ كان ونتنصّل من إغفال إنْ عرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطـع القـفـار تـارةً عـلـى متن الـبـحـر وتارة على ظهر البرّ مستعملين بـدائـع الأمم

---

32 – اشتهر في القرن التاسع سليمان التاجر الذي قام بعدّة أسفار بين الخليج والهند والصين مستفيداً من حسن العلاقات بين بغداد وهذه البلدان ووقف بجزيرة سرنديب. (أنظر الخريطة).

يقول صاحب مسالك الأبصار في شأن الهند " وحسبك ببلاد في بحرها، الدرّ وفي برّها الذهب وفي جبالها الياقوت والماس وفي شعابها العود والكافور ومن وُحوشها الفيلُ والكركدنّ ومن حديدها سُيوف الهند..."

قال الشاعر:

تغّرب عن الأوطان في طلب العلى	وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هــم واكتساب معيشــة	وعلم وأداب وصحبـــة مــاجد
وان قيل في الأسفار ذل ومحنــة	وقطع الفيافي اكتساب الشدائــد
فموت الفتى خـير له من حياتــه	بــدار هــوان بين واش وحــاسد

وقال مؤيد الدين الطاغرائي (توفي 1112 م) في لاميته الشهيرة:

إن العلى حدثتني وهي صادقة	فيما تحدث أن العز في النقل

لقد عبر كتاب وشعراء كثيرون عن فوائد السفر من بينهم الكاتب الفرنسي:

"Le voyage est une espèce de porte par où l' on sort de la réalité Commune pour pénétrer dans une réalité inexplorée qui semble un rêve"

(Guy de Maupassant) ,1850-1893-LE VOYAGE

بالمشاهدة عارفين خواصّ الأقاليم بالمعاينة كقطعنا بلاد السند والزنج والصّين والزّابج وتقحّمنا الشرق والغرب فتارة بأقصى خراسان وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان وطوراً بالعراق وطوراً بالشام فيسري في الآفاق، سُرى الشمس في الإشراق. [33]

وأثرى ابن فضلان [34] واليعقوبي والمقدسي المعلومات المعروفة ثمّ واصل العملَ البكري والإدريسي وابن جبير وابن بطوطة فوسّعوا ميدان الجغرافية وما ساعدها.

- ذكر المسعودي أنّ "بحر الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهُها غير منفصلة إلا أن هيجانها وركودها يختلف لاختلاف مهاب رياحها فبحر فارس تكثر أمواجه ويصعب ركوبه عندَ لينِ بحر الهند واستقامة الركوب فيه والغوص على اللؤلؤ في بحر فارس إنّما يكون في أوّل نيسان إلى آخر ايلول".

وورد في كتبهم أسماء كثيرة لبحر الشام وبحر الرّوم وحدده المسعودي بما يحيط به من البلدان قائلاً: هو البحر الرومي وبحر الشام والروم ومصر والمغرب والأندلس والإفرنجة والصّقالبة ورومية وغيرهم من الأمم... [35]

ويختلف البحر الأحمر عن المتوسط كثيراً في طبيعته ورياحه وأعاصيره وطرق الملاحة فيه.

وله أسماء كثيرة: بحر القلزم (مدينة قرب السّويس) وبحر عيذاب وبحر اليمن وبحر الحجاز وبحر فرعون... [36] وبحر جدّة وكان لجدة دور أساسي في تموين مكة بالمواد والسلع كما زاد شأنها أيام الخليفة عثمان.

---

33 - مروج الذهب - المقدمة ص 18-19.

34 - أحمد بن فضلان في عهد الخليفة العباسي المقتدر (ق4هـ/10م)
- أحمد بن أبي يعقوب (توفي بعد 278هـ/891م) له كتاب البلدان.
أبو عبد الله بن أحمد المقدسي (توفي بعد 378هـ/988م) له كتاب أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم.

35 - قال القلقشندي: "أضيف إلى الرّوم لسكن أمَمهم عليه في شماليّه وقد يعبّر عنه أيضاً بالبحر الشامي لوقوع سواحل الشام عليه من شرقيه. ومخرجه من المحيط من بحر اقيانوس بين الأندلس وبرّ العدوة وسمّي هناك بحر الزقاق (صُبح الأعشى ج3 ص 230-231).
ويشيرُ المقرى إلى بحر المجاز (مضيق جبل طارق) إلى عرض المضيق فيقول: "إن مقدار عَرضه ثلاثة عشر ميلا ويزيد: هناك: كانت القنطرة التي يزعم النّاس أن الاسكندر بناها ليعبر عليها من الأندلس إلى برّ العدوة ويُعرف هذا الموضع بالزقاق وهو صعب المجاز لأنّه مجمع البحرين لاتزال الأمواج تتطاول فيه والماء يدور (نفح الطيب ج1.ص143-144)".

36 - إشارة إلى غرق فرعون وجنوده.

ويعبّر عن طوله عند القدماء - بطول الملاحة فيه من الشمال إلى الجنوب 30 يوماً!

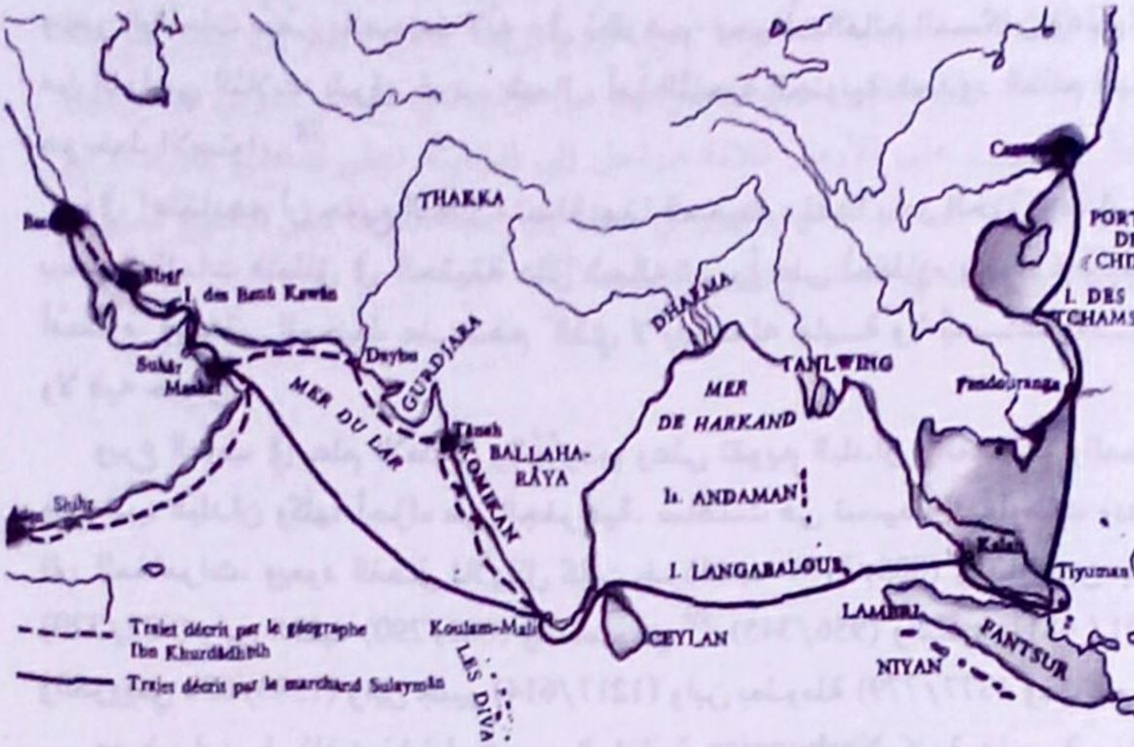

الطرق التجارية بين البصرة والصين أيّام التاجر سليمان (منتصف القرن 9م)

وأفادنا ابن بطوطة بذكر مميزاته فقال: " لا يُسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وانما يسافرون فيه من طلوع الشمسِ إلى غروبها ويُرسُون وينزلون إلى البرّ فإذا كان الصباح صعِدوا إلى المركب وهم يسمّون رئيس المركب ربّانا "[37]

ورغم الصعاب الناجمة عن طبيعة هذا البحر وعن ضعف المراكب التي كانت تشقه، فإنهم ركبوا الأحمرَ من السّويس والطور والقصر وعيذاب وَعدن.

---

37 - أبو عبد الله بن محمد من مواليد طنجة 703هـ/1307م.قام بأسفار ومغامرات إلى المشرق وإفريقية وآسيا جمعها في كتاب " تحفة النظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار
- ترجمت هذه الرّحلة إلى عدّة لغات.

Ferrand (G), Voyage du marchand arabe Sulaymane en Inde et en Chine (trad.), Paris, Les classiques de l'Orient, VIII, 1922.

الأقيانوس: بحر الاكتشافات:

يُسمى أيضاً اقيانوس والبحر الأخضر والبحر الأعظم والبحر الكبير والبحر المظلم وبحر الظلمات سُمّي بالمحيط لانّه -في نظرهم- يحيطُ بالعالم المسكون وعلى الأقلّ من النواحي الثلاث: شرق، غرب، شمال، أماّ النّاحية الجنوبية فحدود العالم المعمور هو خطّ الاستواء. [38]

وفي اعتقادهم أن جميع البحار متصلة بهذا المحيط ماعدا بحر الخزرّ وأماّ تسميته ببحر الظلمات فتطلق في الحقيقة على شماله تعبيراً على أخطاره وسواد جوّه وكثْرة أمْطاره. ويبقى المحيط عندهم "الذي لا يدرك له غاية ولا يُحاط بمقداره ولا فيه حيوان.

وبرع العرب في علم الأطوال والعُرُوض وعلى تقويم البلدان والمسالك والممالك وعجائب البلدان وكلّها أجزاء من الجغرافية. ساهمت فى تبسيط المعلومات ودفعت إلى المغامرات. ويعود الفضل للأوائل كابن خرذاذ به (885/273) وقدامة بن جعفر (932/320) وابن الفقيه (885/290) والمسعودي [39] (956/345) والبكري (481 / 1091) والقزويني 1283/682) وابن جبير (1217/614) وابن بطوطة (1377/779 وغيرهم...)

وصف ابن خرذاذبه نشاط اليهود الراذانية Narbonaise كلمة فارسية معناها العارف بالطرق التجارية:" هذا مسلك البحار اليهود الرذانية البحار الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية. إنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا... يركبون من فرنجة في البحر الغربي (البحر الأبيض المتوسط) فيخرجون بالفرما (مدينة ومرفأ بمصر غربي العريش خربها الصليبيون عام 1100). ويحملون تجارتهم على الظهر (برا) إلى القلزم (بلدة بالبحر الأحمر كانت منذ عهد عمر بن الخطاب تر بط النيل بالبحر) ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار(مرفأ بالحجاز والبحر الأحمر)

38 – الحميري: الروض المعطار :" وانما يركب هذا البحر مايلي المغرب والشمال وذلك من أقصى بلاد السّودان إلى بريطانية وهي الجزيرة العظمى التي في أقصى الشمال وفيه ستة جزائر تقابل بلاد السودان تسمّى الخالدات ثُم لا يُعرف ما بعد ذلك".

39 – ابو الحسن علي بن الحسين (توفي حوالي 956/345) من السباقين لفن الجغرافية الأدبية. ولد ببغداد ثم قام بأسفار عديدة منذ صغره. فها هو بفارس (915/303) بالهند وسرنديب وربما وصل إلى الصين. ثم عاد إلى بلاده معرجا على مدغشكر وفي (926/314) حل بفلسطين ثم بأنطاكية قبل أن يستقر بمصر إلى أن توفي. وله كتب منها مروج الذهب ومعادن الجوهر وكتاب التنبيه أنهاه قبيلة وفاته.

ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك وعلى العود والكافور وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما (مرفأ بمصر على الأبيض المتوسط) ثم يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك. وإن شاؤوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاثة مراحل إلى الجابتة (على شاطئ الفرات) ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الأبلة (مرفأ على الخليج العربي) ومن الأبلة إلى عمان في السند والهند والصين.[40]

40 - أبو القاسم عبد الله ابن خرذاذبه، توفي حوالي 885/275. عاصر الخليفة العباسي المعتمد (972 /298)-(973- 298). له كتاب المسالك والممالك.

دليل فاسكودي قاما البرتغالي

ابن ماجد (شهاب الدين أحمد بن محمد)

من أكبر وأشهر البحّارين العرب. ينتمي إلى أسرة مارست الملاحة أباً عن جدّ وعاش في النصف الثاني من القرن التّاسع هـ/ والخامس عشر م. أصله من جلفار (مرفأ بالجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربيّة بمقاطعة عمان).

شق عباب البحر سنوات حتى سمي بالمعلّم وأصبح خبير المحيط الهندي. كان يستعمل " بيت الإبرة (البوصلة) وكانت سياحته في البحر الأحمر والمحيط الهندي وسواحل أفريقيا الشرقية وبها عرفه فاسكو دي قاما فأوصله ابن ماجد إلى قاليكوت.

ترك أبوه أرجوزة في فن الملاحة فأدخل عليها الابن تعديلات وإضافات.

وكان البحّار التركي سيد علي رايس قد ذكر في مؤلّفه "المحيط" أنّه استغلّ مدّة إقامته بالبصرة ليجمع ويحلّل كلّ ما كتبه ابن ماجد وسليمان بن أحمد المهري[41] لأنّ الملاحة في المحيط خطيرة جدّاً على من لم يطالع هذه الكتب.

ولابن ماجد مؤلّفات عديدة منها المنظوم ومنها المنثور ككتاب "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" الذي يحتوي على معلومات ثمينة وكتاب "حاوية الاختصار في أصول علم البحار" (أنهاه في 895هـ/ 1489م) ذكر فيه الإشارات إلى قرب السّاحل كالطيور والرياح.

وفيه أخبار دقيقة عن كبريات الجزر المعروفة آنذاك كجزيرة العرب والقُمُر وسماترة وجاوة وتحدث فيه أيضا عن المغناطيس وخنّات البوصلة وعددها 32 وطرق الملاحة وعرض بعض موانئ المحيط الهادي وبحر الصين والرّياح الموسمية المساعدة على السفر وجاء في الكتاب تفاصيل عديدة حول البحر الأحمر وأماكن الأرساء به والأرصفة الرملية والشعاب المهددة للمراكب وفيه أيضا معلومات عن النجوم منها بنات نعش ووصف الهاجرة الفلكية وصالب السّفينة والزّام وهو سير ثلاث ساعات بحراً والمجراس وهو سير يوم واحد...[42]

---

41 - من بلدة شهر مقاطعة الجرز جنوب شبه الجزيرة - من مؤلفاته تحفة الفحول والمنهاج وقلادة الشموس.

42 - للمزيد من المعلومات دائرة المعارف الإسلامية ج 3 ص 880- 883 مادة " ابن ماجد" بقلم س. مقبول أحمد.

واشتهر ابـن ماجـد بمساعدتـه للمـلاّح البرتغـالي فاسكو دي قـامة Vasco De Gama (1469 - 1524) عندما وصل إلى ميناء مالندي بالسّاحل الشرقي للقارة السمراء سنة 1498 قاصداً الهند الغربية فاستعان بابن ماجد لما لهذا من خبرة وباع طويل في الميدان.

فقبل "المعلّم" أن يقود سَفينةَ الأميرال الذي كان على رأس مجموعة برتغالـية وكان بحوزة ابن ماجد خريطة مفصّلة للسّاحل الهندي بخطوط الزوال والخطوط الموازية [43] والأدوات التي تُستخْدم في الفَلَك لقياس الارتفاع.

وكانت شهرة ابن ماجد مبنية أولاً على اطلاعه الواسع لكتب القـدماء كمحمّد بن شادان وسهل بن ابّان وليث بن كهلان وثانيـا على ممارسته الطويـلة للمـلاحة التي تـواصلت مُدّة أربعين سنة مكنته من الملاحظة الدقيقة وإثراء المعلومات الصحيحة. [44]

حزب البحر (دعاء المسافر)

المنسوب إلى أبي الحسن الشاذلي

وكان يحجّ في كلّ سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ويُبحر إلى جدّة وكان إذا ركِب السّفينة قرأه في كلّ يوم وتلامذته إلى الآن يقرؤونـه كـلّ يـوم

" يا الله يا علّي ياعظيم يا حليم يا عليم أنتَ ربّى وعلمك حسبي فنِعمَ الرّب ربّي ونعمَ الحسبُ حسبي... نسألك العصمة فى الحركات والسّكنات والكلمات والإرادات والخطوات من الشكوك والظنون والأوهام السّاترة للقلوب من مطـالعة الغيـوب. فقد ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً... فثبتنا وانصرنـا وسخّر لنا هذا البحـر كما سخرت البحرَ لموسى عليه السّلام وسَخّرت الريحَ والشياطين والجنّ لسليمانَ عليه السّلام وسخّر لنا كلّ بحرٍ هو لك... وسخّر لنا كـلّ شئ يا مَن بيده ملكوت كلّ شيء... اللهم يسّر لنا أمورنا مع الرّاحةِ لقلوبنا وأبدانِنا والسّلامة والعافية في ديننا ودُنيـانا وكن لنا صاحباً في سفرنا وخليفةً في أهلنا..."

عن ابن بطوطة، الرحلة. ص 12

- الحزب: ما يجعله المسلمُ على نفسه من قراءةٍ وصلاةٍ كالورد.

---

43 - أنظر قطب الدّين النهر والي (1511 -2851(البرق اليمني وكذلك سيدي علي رايس التركي، المحيط.

44 - وتوجد مخطوطات ابن ماجد وسليمان بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 2292 و2559.

الرّحلات البحريـة وأهوالها المرعبة

سافر العرب حجاجاً وتجّاراً وطلاّب علم أو عشاقا للمغـــامرات والاستطـــلاع ومن بينهم المغاربة. ويُعَدّون بالعشرات عملاً بقوله (صلى الله عليه و سلم) " إنّ الله بالمسافر رحيم" وتطبيقاً لنصائح الأوائل: " سافروا تغنموا والحركةُ ولودٌ والسُّكون عاقرٌ".

فتحدّى ركّاب البحر بالخصوص الأخطارَ المحدقة بهم وتجاهلوا الأهوال العظام والرّياح العاصفة والزّوابع الهائجة فدوّنوا مشاهداتهم ووصفوا تجوالهم وسجّلوا الأحداث التي عرضت لهم مُدة تنقّلهم في طليعتها تقلبات البحر المتسبّب في " انغلاق الجهات الأربع بالأنواء فلا يُميز شرقٌ من غربٍ والآفاق تزيد سوادًا في كلّ حين ".

ويطول رُعب المسافرين بطول جنون الأمواج وتهاطل الأمطار فيعظم الخطب ويشتّدّ الكرب فيتحوّل الموجُ إلى جبال شوامخ وتظل السّفينة تميل يميناً وشمالا كالبهيمة التي تتمرّغ في التراب فلا يثبت للرياح شِراعٌ وتتكسّر الأخـــشاب ويحـــدث في كثير من الأحيان مالا تحمد عقباه

وما أكثر النصوص في معاناة المسافرين وأخطار الملاحة في القرون الماضية اخترنا نماذج لفوائدها الإخبارية وسلامـة عِبرها تُطلـعنا على ما عـانى الركـابُ وما عاينوه.

1- قال الحريري (أبو القاسم محمّد بن علي البصري) 446هـ/1054م.

حدّثنا الحرث بن همّام قال... مِلت إلى اجتياز التيار، واختيار الفلك السيّار، فنقلت إليه أساودي واستصحبت زادي ومزوادي ثم ركبت فيه ركوب حاذر ناذر عاذل لنفسه عاذر فلما شرعنا في القلعة ورفعنا الشرع للسرعة سمعنا من شاطئ المرسى حين دجا ظلم الليل وأغسى هاتفا يقول يا أهل ذاك الفلك القويم المزجى في البحر العظيم تقدير العزيز العليم هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم.[45]

فقلنا أقبسنا نارك أيها الدليل وأرشدنا كما يرشد الخليل الخليل... فلمّا استوى على الفلك قال أعوذ بمالك الملك من مسالك الهلك ثم قال: حرز السفر عند مسيرهم في البحر والجنة من الغم إذا جاش موج اليم وبها استعصم نوح مـن الطوفـان

45 – أساود الدار: أمتعتها – المزود: وعاء الزاد – ناذر: جعل عليه نذرا إن سلمه الله من البحر وهوله – القلعة: النهوض – الشرع: جمع شراع قلع السفينة – أغسى الليل: اشتدت ظلمته

ونجـاومن معه من الحيوان على ما صدعت به آي القرآن ثم قرا بعد أساطير تلاها وزخارف جلاها وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ثم تنفس تنفس المغرمين أو عباد الله المكرمين.

...ولم نزل نسير والبحر رهوٌ والجو صحوٌ والعيش صفو والزمان لهْو إلى أن عصفت الجنوب وعسفت الجنوب ونسي السفر ما كان وجاءهم الموج من كل مكان فملنا لهذا الحدث الثائر إلى احدى الجزائر لنريح ونستريح ريثما تواتي الريح فتمادى اعتياص المسير حتى نفذ الزاد غير اليسير..[46]

2 - *سفرُ ابن جبير* [47] *سنة 578هـ./1183م - من سبتة إلى الإسكندرية* وقد دام شهراً كاملاً.

وألفيْنا بسَبتة مركباً للرّوم الجنويين مقلعاً إلى الإسكندرية فسهّل الله عليْنا الركوبَ فيه وأقلعنا وكان طريقنا في البحر محاذيا لبرّ الأندلس ثمّ حاذينا دانيا ثمّ قابلنا برَّ جزيرة يابسة فبرّ جزيرة ميورقة ثمّ جزيرة منورقة.

وقام معنا برّ جزيرة سردنيا دفعة واحدة وطرأ علينا من مقابلة البرّ هولٌ عظيم عصم الله منه بريح أرسلها في الحين من تلقاء البرّ فأخرجنا عنه والحمد لله على ذلك. وقام علينا نوء [48] هال له البحر فبقينا متردّدين بسببه حول برّ سردانية فأطلع الله علينا (في حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء فلا نميّز شرقاً من غرب) مركبا للرّوم قصدنا حتّى حاذانا فسئل عن مقصده فأخبرنا أنه يريد جزيرة صقـلية فأخـذنا عند ذلـك في اتباع أثره فخرج علينا طرف من برّ سردنيا فأخـذنا في الرجـوع عوداً على بـدءٍ إلى أن وصلنا طرفاً من البرّ المذكور.

(ثمّ) فارقنا برّ سردانية وهو برّ طويل جرينا بحذائه نحو 300 ميل ومنتهى دور الجزيرة على ما ذكر لنا إلى أزيد من 500 ميل ويسّر الله علينا في التخلّص من بحرها لانّه أصعب ما في الطريق والخروج منه يتعذر في أكثر الأحيان. (ثمّ) عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة كأنّه شابيب سهام فعظم الخـــطب

---

46 - أقبسنا: أعطينا قَبَسًا- وأخبرنا بما عندك - الجنة: الوقاية والستر - صدعت به: نطقت به - مجراها ومرساها: اقتباس من القرآن، سورة هود اية 43 - المغرم: المثقل بالديون - بحر رهو: بحر ساكن - الجنوب: الريح القبلية - الإعتياص: الإلتواء (المقامة التاسعة والثلاثون: العمانية. تتضمن ركوب أبي زيد البحر).

47 - محمد بن أحمد... الأندلسي (540-614//1145-1217)- توفي بالاسكندرية بعد رحلته الثالثة إلى المشرق وسماها " اعتبار الناسك في ذكر الآثار والمناسك".

48 - كان الفصّل شتاءً (شهر فيفري).

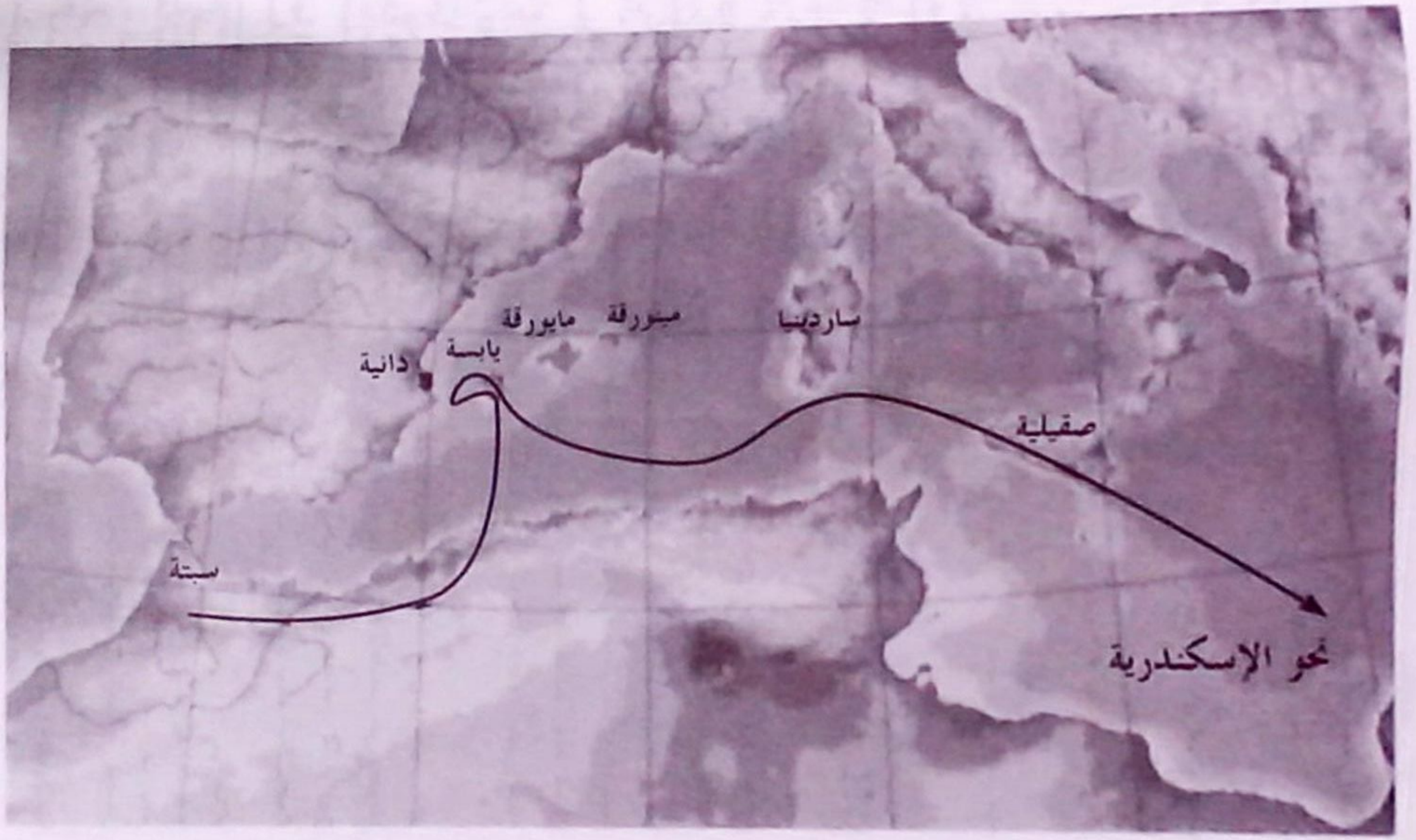

سفر ابن جبير من سبتة إلى الإسكندرية

البحر الأحمر: العبور من عيذاب إلى جدة الخليج العربي : طروق التجار بين البصرة والهند والصين

واشتد الكرب وجاءنا الموج من كلّ مكان أمثال الجبال السّائرة فبقينا على تلك الحالة الليل كلّه واليأس قد بلغ منّا مبلغه. وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنّا بعض ما نزل بنا فجاء النهار بما هو أشدّ هولاً وأعظم كربا وزاد البحر اهتياجاً وازيدت الآفاق سوادا واستشرت الريح عصوفا حتى لم يثبت معها شراع فلُجِيّ إلى استعمال الشرع الصغّار.

فأخذت الريّح أحدها ومزقته وكسرت الخشبة التي تربط الشرع فيها وهي المعروفة عندهم بالقرية. فحينئذٍ تمكّن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعـاء إلى الله عزّ وجلّ وأقمنا من تلك الحالة النّهار كلّه. فلما جنّ الليل فترت الحال بعض فتور وسِرنا في هذه الحال كلّها بريح السواري [49] سيراً سريعا. وفي ذلك اليوم حاذينا برّ جزيرة صِقلية وبتنا تلك اللّيلة متردّدين بين الرّجاء واليأس. فلمّا أسفر الصّبح نشر الله رحمتَه واقشعت السحاب وطاب الهواء وأضاءت الشمسُ وأخذ في السكون البحرُ فاستبشر الناس وعاد الأنس وذهب اليأس.

وفي هذا الصبّاح المذكور ظهر لنا برّ صقليّة وقد اجتزنا أكثره وبين البرّين برَّ سَرْدنيا وبرَ صقليّة نحو 400 ميل ثمّ تردّدنا بحذائه بسبب سكون الريح (ثمّ) أقلعنا من الموضع الذي كنّا أرسيْنا فيه وظهر لنا إذ ذاك الجبل الذي فيه البركان [50] وهو جبل عظيم مُصعدٌ في جوّ السمّاء قد كساه الثلج .

ثم حاذينا برَّ اقريطش تقديراً عياناً (ثمّ) فارقناه متوجّهين لقصدنا فظهر لنا البرّ الكبير المتصل بالإسكندرية المعروف ببرّ الغرْب فأخذنا في السيْر والـبر المذكـور منا يمينا وفي صبيحة يوم السبت 29 من الشهر (ذي القعدة) أطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور الإسكندرية.. فكانت إقامتنا على متن البحر 30 يوماً.

عبور البحر الأحمر [51] *من عيذاب إلى جدّة:*

ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت وذلك أنّهم يشحنون بـهم الجِـلاب حتى يجْلس بعضهم على بعض وتعُود بهم كأنهّا أقفاص للدجاج المملوءة يحمِل أهلهَا

---

49 - السّارية عند الملاحين: العمود الذي يُنصب وسطَ السّفينة لتعليق القلوع به المعبّر عنه A sec de voiles.

50 - المعروف عندهم بالاتنا LETNA قرب مدينة CATANE.

51 - البحر الأحمر أضيق بحور الأرض حسب الزهري. كتاب الجغرافيا بعد خليج القسطنطينية عرضه معتدل من أوله إلى آخره - 100 فرسخ وطوله 1020. ويقدر الفرسخ ب 4260 مترا.

على ذلك الحِرْصُ والرّغبة في الكراء حتى يستوْفِي صاحب الجَلْبة منهم ثمنها في طريقٍ واحِدة ولا يبالِي ما يصنعُ بها البحر بعد ذلك ويقولون: علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح هذا مثل متعارف عندهم...

وطوال ثمانية أيام أقمناها على البحر وكانت أهوالا شتى فمنـها ما كان يطـرأ من ضعف عُدّة المراكب واختلالها واقتصامها (انكسارها) المرّة بعْد المرة عند رفع الشراع أو حطّه أو جذب مرسى مِن مراسيه وربما منحت الجَلْبة بأسفلها على سعب من تلك الصعاب أثناء تحلّلها فيسمع لها هدّاً يُؤذِن باليأس فكنّا فيها نمـوت مراراً ونحيا مراراً...

3 – الوزير التمقروتي [52] يُقلع من بجاية قاصداً المشرق:

فلماً سافرنا من بجاية عشية يوم الأربعاء هبّت علينا ريحٌ شديدة تلك الليلة وعظُم الموج وهال البحر واشتدت الريح وصار الموج كالجبال الشوامخ يضم السّفينة كلها ويُميلها يَمينا وشمالا كالبهيمة التي تتمرغ في التراب". [53] وأيس الناس من السلامة والنجاة وأيقنوا بالهلاك والغرق. وبعدت السّفينة من البرّ خوفاً منه إذا لم يجدوا مرسى هناك وأمر الرايسُ الناسَ كلهم بالنزول إلى جوف السّفينة حتى لم يبق على ظـهرها إلاّ خدمةُ أحبالها وقلاعها من النصارى [54] والبحرية ليخف ظهرها ويقلّ اضطرابها وميلها ويجدوا سعةً لخدمتها والبحرُ لا يزداد إلاّ اضطرابا ومُوجا واشتدّ الميد [55] بالناس والقيئُ ويتنحّم كلّ واحد في مكانه لا يدرى من هو جليسه ولا يحس بما فعل به والقوي المتماسك منهم من قدر على أن ينطق بالشهادة ويستعدّ للموت.

وعظم الخطب واشتدّ الأمر تلك الليلة كلّها ومن الغد إلى أنّ جزنا مرسى جيجل ودخلنا مرسى القصب [56] فخفّ علينا الحال. [57]

---

52 – أبو الحسن بن علي... التمقروتي (نسبة إلى تمقروت بوادي درعة بالمغرب).
كان السلطان السّعدي مولاي أحمد المنصور كلفّه بمهمة لدى السلطان العثماني 1591م.

53 – الإقتباس من رحلة ابن جبير.

54 – يشير إلى الأسرى النصارى الذين وقعوا في قبضة المسلمين واستعملوا للمجاذيف في المراكب البحرية.

55 – الميدُ: الاضْطراب والدّوران والغشيان بسبب ركوب البحر.

56 – موضع يصعب تحديده بالضبط ولعله بين جيجل ورأس بوقارون.

57 – النفحة المسكية في السّفارة التركية نشر د/بلحميسي الجزء المتعلق بالجزائر (الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني).

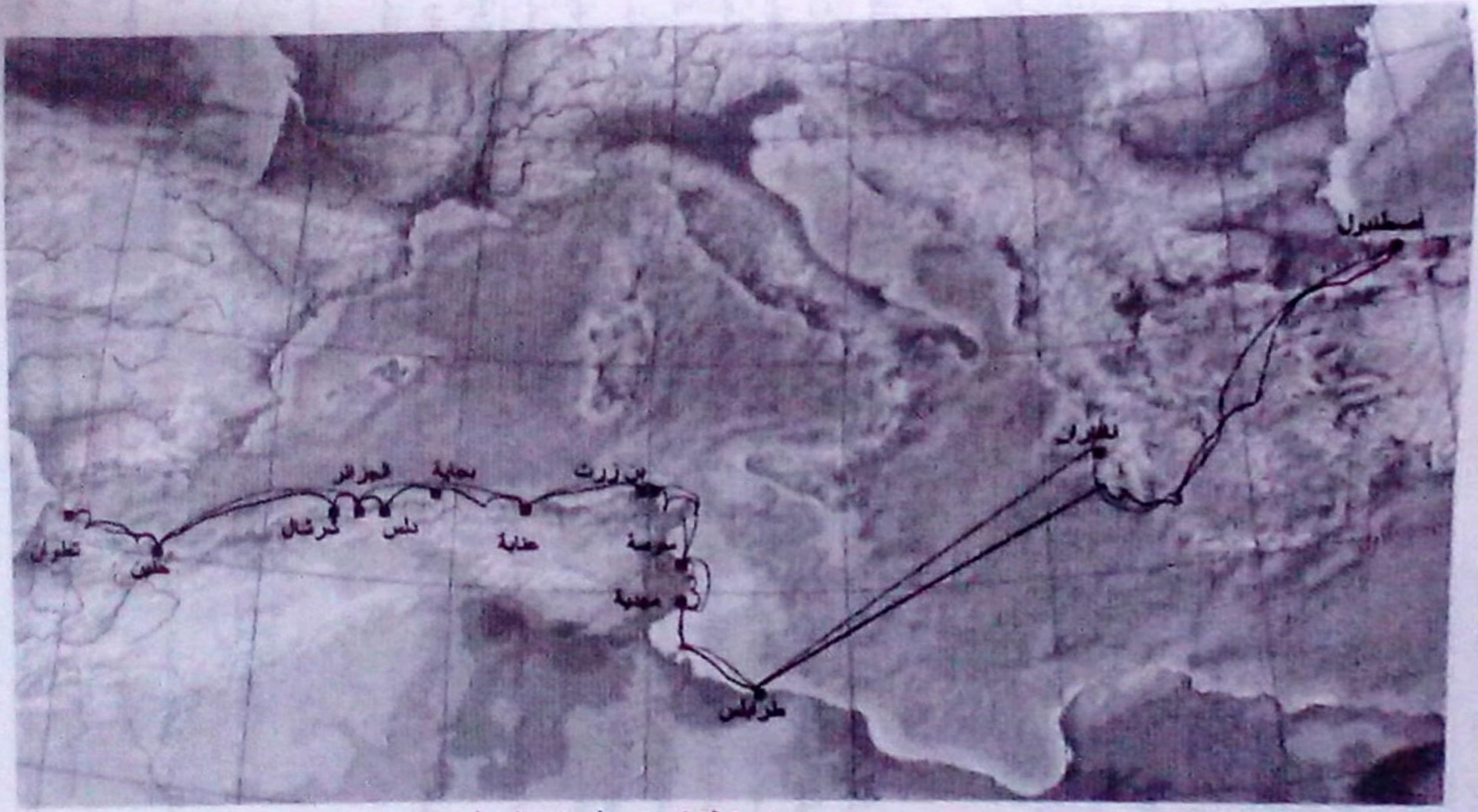

سفارة التمقروتي إلى اصطنبول

4 – أبو العباس المقري [58] يمتطي السّفينة من المغرب إلى مصر.

" ركبنا البحر وحللنا فيه بين السّحر والنحر [59] وشاهدنا من أهواله وتنافى أدواله مالا يُعبّر عنه ولا يبلغ له كُنْه."

البحرُ صعبُ المذاق مرٌّ   لا جُعِلت حاجتي إليـــه

أليس ماء ونحن طيـــن   فما عسى صبُرنا عليه [60]

فكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بَواسر، وطارت إلينا من شراعه عقبان كواسر، قـد أزعجتها أكفّ الرّيح من وكرها كما نبهت اللجج من سكرها فلم تبق شيـئاً من قوّتها ومكرها فسمعنا للجبال صفيراً، وللرياح دوياً عظيما وزفيراً، وتيقنا أناّ لا نجد من ذلك الأفضل الله مجيراً وخفيراً "وإذا مسّك الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه" [61] وأيسنا من الحياة، لصوت تلك العواصف والمياه، فلا حيّ الله ذلك الهول المزعـج ولا بيّاه [62] والموج يصفق لِسَماع أصوات الرّياح فيطرب، بل ويضطرب فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب، فيبتعد ويقترب، وفرقه تلتطم وتصطفق، وتخـتلف ولا تكاد تتفق، فتخال الجوّ يأخذ بنواصيها، وتجذبها أيديه من قواصيها، حتى كاد سطح الأرض يكشف عن خلالها وعنان السحب يخطف في استقلالها وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها وساءت الظنون، وتراءت في صورها المنون، والشرّاع في قـراع مع جيوش الأمـواج التي أمدّت منها الأفواج بالأفواج ونحن قُعُود، كدودٍ على عودٍ ما بين فُرادى وأزواج وقد نَبَتَ بنا من القلق أمكنتنا وخرست من الفرق ألسنتا وتوهّمنا أنّه ليس في الوجود أغوار ولا نجود إلا السّماء والماء وذلك السّفين، ومن في جوف قبره دفين، مع ترقب هجوم العدو، في الرواح والغدوّ الاجتياز على عدّة من بلاد الحرب [63] دمّر الله سبحانه

---

58 – أبو العبّاس... المقري (من رجال القرن 17م.) صاحب نفح الطيب من غصْن الأندلس الرّطيبْ 8 أجزاء.

59 – السَّحْر: الرئة والجوف. وبين السّحر والنحر: بدون رجاء.

60 – البيتان لابن رشيق (أبو على بن الحسن المسيلي وكان بصقلية عند ابن مطكود/ توفى بصقليّة 456هـ/ 1064.

61 – الآية كاملة: وإذا مسّكم الضُّرُّ في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجّاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً (الإسراء 67).

62 – بيّى: رفع مقامه.

63 – بلاد الحرب في مقابل بلاد الإسلام يعني هنا العدوة الشمالية للبحر الأبيض أو جزر الأبيض المتوسط.

من فيها وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرْب لا سيّما مالطة الملعونة التي يتحقق من خلص من معرّتها أنّه أمُدٌ بتأييد إلهي ومعونة إذ البحرُ وحده لا كمي يقارعه، ولا قويّ يُصارعه، ولا شكل يضارعه، ولا يؤمن على حال ولا بين أعزل وشاكٍ ومتباكٍ وباكٍ:

فكيف وقد أنضم إليه خوف العدو الغادر الخائن، والكافر الحائن، إلى أن قضى الله بالنجاة وكلّ ما أراد فهو الكائن فرأينا البرّ وكانا قبلُ لم نره، وشفيت به أعيننا من المرَة [64].

5- ابن زاكور الفاسي [65]

لما تهيّأ لنا السّفر، وعنّ لنا وجه السداد وظهر، وعزمنا على امتطاء ثبجه، ووضعنا أزوادنا بشط لججه، أبت سفينتنا أن تنقاد، وبركت لنا في حلق الواد كان هناك سفينة أخرى مصا حبتنا في تلك المسالك، ومرافقتنا في تلك المهالك، فخرجت في الحال كأنما نشطت من عقال، فشد ذلك علينا، وكان من أعظم نعم الله لدينا، فما كان إلاّ ريثما حملوا متاعهم، نشروا شراعهم، حتى قابلهم البحر بما راعهم، وغلب دفاعهم، وأبدى لهم من قطوبه، ما لا يقدر معه على ركوبه، واستحال نسيمهم عقيماً، وأوردتهم الزعازع عذاباً أليماً.

فلم أزل في مطاها، أتلو باسم الله مجراها ومُرساها، [66] والرّيح يركضها في ميادين الأهوال، ويجريها في موج كالجبال، والبحر تارة يروقنا ابتهاجاً، كأنما كُسِيَ ديباجاً، وأخرى يتفاقم غيضه، ويشتدّ قيظه، ويكثر زَبَدُه ويطول لُدَدُهُ، وتصطك أمواجه، ويحاكي قلب المعذب بالهجران انزعاجه، ويهولنا ما أبداه من ذلك وأفشاه، حتى نجزم بأنه يدخلنا في حشاه، إلى أن شمنا برق السلامة وسحت علينا من سحائب النجاة غمامة فوصلنا إلى محل ابتداء سفرنا ونهاية صدرنا مدينة تطوان ومغنى الأحباب والإخوان. [67]

---

64 - نفح الطيب ج ة ص 33-34. المره فساد العين لترك التكحل.

65 - أديب ورحّالة وشاعر قدم الجزائر سنة 1093هـ/1683م لإتمام تعلّمه.

66 - سورة هود، آية 43.

67 - الرّحلة المسماة: نشر أزاهير البستان في من أجازني بالجزائر وتطوانَ ص 46- 48.

ضحايا الغرق

- ابن خلدون يُصاب في أهله

غيرَ أنّ أكبر فاجعة بحرية هي تلك التي نـزلت بعـبد الرّحـمن بن خـلدون. وكان قدْ رحل من تونس في منتصف شعبان سنة 784هـ/1382 فحَدّثنا قائلا:

أقمنا في البحر نحواً من أربعين ليلة ثمّ وافينا مرسى الإسكندرية يومَ الفطر. وتدخّل صاحبُ مصر الملك الظاهر برقوق أبو سعيد لدى السلطان الحفصي صاحب تونس ليسمح بأن تلتحق الأسرةُ بالعلاّمة.

ولكن القدر المحتوم أصاب العلامة في أعزّ ما يملك وفي رمضان غرِق مركبٌ كبيرٌ يقال له رُبُع الدّنيا " حضر من المغرب وفيه هدايا جليلة من سلطان المغرب وغرقت فيه زوجة القاضي ولى الدين (ابن خلدون) وخمسُ بنات وما كان معهُ من الأموال والكتب ولم يسلمْ سوى ولديْن محمّد وعلي فقدما إلى القاهرة

يقول ابن خلدون فوافق ذلك مصابي بالأهل والولْد وصلوا من المغرب في السّفين (جمع سفينة) فأصابها قاصفٌ من الرّيح فغرِقت وذهب الموجود والسكن والمولود فعَظم المصاب والجزَع ورجح الزّهد. [68]

- وابن حمديس الصقلي يفقد جوهرة

ماتت الجارية غرقا والمركب متوجه من الأندلس إلى افريقية

أيا رشاقة غصن البان ما هـصرك	وا تألف نظم الشـمل من نـثرك؟
لا صبر عنك وكيف الصبر عنك وقد	طواك عن عيني الموج الذي نشرك
أما تك البحر ذو التيار من حـسد	لما درى الـدر منه حاسدا ثغـرك
وقعت في الدمع اذ أغرقت في لجج	قد كاد يغمرني منه الذي غمـرك،
أي الثلاثة أ بكـي فقـده بـدم	عميم خلقك أم معناك أم صغـرك
أقول للبحـر إذ أغشيـته نظـري	ماكدر العيش إلاّ اشربها كـدرك
هلا نظـرت إلاّ تفتيـر مقلتهـا	إني لأعجب منه كيف ما سحـرك

68 - ابن تاويت الطنجي: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، 1979ص 267-280. وكذلك تاريخ ابن قاضي شهبة.

قال وقد رأى صبيا لاعبا في البحر ينغمس في مائه ويرتفع ويشير أن أدركوني فاني غرقت فذكر بفعله هذا جاريته جوهرة.

وسابح لاعب في بحره مرحا ... تشير كفاه تعويذا من الغرق
يدعو ولم يك مضطرا خذوا بيدي ... وعنده الفرق بين الأمن والفرق
فإن بكيت فإني قد ذكرت به ... من جرعت منه كأس الموت بالشرق
ردت على البحر من كفي جوهرة ... ثم انقلبت بقلب دائم الحرق

وواحشتا من فراق مؤنسة ... يميتني ذكرها ويحييها
أذكرها والدموع تسبقني ... كأنني للأسى أجاريها
يا بحر أرخست غير مكترث ... من كنت لا للبيع أغليها
جوهرة كان خاطري صدفا ... لها أقيمها به وأحميها
أبدتها في حشاك مغرقة ... وبت في ساحليك أبكيها
عانقها الموج ثم فارقها ... عن ضمة فاض روحها فيها

ولما كان المعتمد بن عبّاد معتقلا بأغمات (المغرب الأقصى) زاره ابن حمديس الصقلى وأثناء السّفر في البحر انكسرت السّفينة التي ركبها وغرقت جوهرة فأنشد:

ألم أكُ في الفراق مشيراً براحتي ... فلم أنجُ الاّ من لقاءِ حِمامي
ألم أفقد الشمْسَ التي كان ضَوءُها ... يجلي عن الأجفان كلّ ظلام..

- **ابن بطوطة يشهد غرقا....**

وهذا ابن بطوطة بعدما انقضى الحج يتوجه إلى جدّة برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند فلم يقض له ذلك ولم يتأت له رفيق فيقول: وأقمتُ بجدّة نحو أربعين يوما وكان بها مركب يرُوم (صاحبه) السفر إلى القصير من عمالة قوص...

وهاهو متردد يُقدّم رجلاً ويُؤخّر أخرى ويُضيف: فصعدت إليه لأنظر حالَه فلم يرضني ولا طابت نفسي بالسّفر فيه وكان ذَلك لطفاً من الله تعالى فإنّه سافر فلما توسّط البحر غرق فخرج صاحبُه وبعض التجار في العشاري (قاربٌ صغير) بعدَ جهد عظيم وأشرفوا على الهلاك وهلك بعضهم وغرق سائر الناس وكان فيه نحو سبعين من الحجاج.[69]

69 - اعترف ابن بطوطة انه لا يُحسِن السّبَاحة مع أن أسفاره البحرية عديدة (رحلة ص 281).

ولم تعرف مشاقّ التنقّل تخفيفاً أو زوالاً وشاعت أنباء الهلاك في كلّ مكان وخصّص لها الشعرُ والنثرُ قسطاً كبيراً بما جادت به الأقلام والمواهب.

- الفتح ابن خاقان يندب فقيدا...

وكان يتجوّل في الشرق عندما بلغَهُ نهاية بعض إخوانه ممن داعبوا الأمواج: قال وقد غرق أحد أصدقائه:

أتاني ورحلي بالعراق عشيـة ورحل المطايا قد قطعن بنا نجدا

نعي أطار القلب عن مستقره وكنت على قصد فأغلطني القصدا

"نعوا والله باسق الأخلاق لا يخلف، ورموا قلبي بسهم أصاب صميمه فما أخلف،لقد سام الردى منه حسناً وجمالاً ووسامة،وطوى بطيه نجده وتهامة [70] فعطل منه النديُّ والنّدى [71]، وأثكل فيه الهديُّ والهُدى، كم فلّ السيوف [72] طول قراعه، ودل عليه الضيوفَ موقدُ ناره بيفاعه [73]، وكم تشوّف إليه السرير والمنبر، وتصرّف فيه الثناء المحبّر، وكم راع البدر ليلة إبداره، وروّع العدو في عقر داره، وأي فتى غدا له البحـر ضريحا، وأعدى عليه الحيْن [74] ماء وريحا، فبدل ظُلل عُلى ومفاخر، بقعر بحر طامي اللّجج زاخر، وبدل من صهوات الخيل، بلهوات اللّجج والسيـل، غـريق حـكى مقلـتي في دمعها، واصاب نفسي في سمعها، ومن حزن لا أستسقي له الغمام فما له قبر تجوده، ولا ثرى تروى به تهائمه ونجوده، وقد اليتُ أن لا أودع الريح تحية، ولا يورثني هبوبها أريحية، فهي التي أثارت في الموج حنقا [75]، ومشت عليه خببا وعنقا [76]، حتى أعادته كالكثبان، وأودعته قضيب بان، فيا أسفا لزلال غاض في أُجاج، ولسلسال فاض عليه بحر عجّا ج، وما كان إلا جوهرًا ذَهَبَ إلى عنصـره، وصـدفا بـان عـن عين مـبصـره، لقـد ان للحسام أن يغمد فلا يشام، وللحمَام أن تبكيه بكل أراكـة وبشـام، وللعـذارى أن لا يحجبهن الخَفَر والإحتشام، ينُحْن فتى ما ذرَّت الشمس إلا ضرّ أو نفع، ويبـكين من لم يدع فقدُه في العيش من منتفع، فكم نعمنا بدنوّه، ونسمنا نسيم الأنس في رواحه

---

70 - تهامة: أراضي السّهل السّاحلي الضيق الممتدّ من شبه جزيرة سيناء شمالا إلى أطراف اليمن ومن مدنها نجران ومكّة وجدّة وصنعاء.

71 - النّدي: الكرم- النديّ- حسن الصوت قويه.

72 - فلّ السيوف: ثلمها وكسّرها.

73 - اليفاع: ما شمخ من الجبال.

74 - الحين: الهلاك.

75 - الحنق: الغيض والحقد.

76 - الخبب: ضرب من العدّو والعنق السير السريع.

وغدوّه، وأقمنا بروضة موشيّة ووقفنا بالمسرات عشية، وأدرناها ذهبا سائلة، ونظرناها وهي شائلة، لم نرم السهر، ولم نشم برقا إلا الكأس والزهر، ولوغير الحمام زحف إليه جيشه، أو غير البحر رجف به ارتجاجه وطيشه، لفداه مِن أسرته كل أروع إن عاجله المكروه تنبطه، أو جاءه الشر تأبطه، ولكنها المنايا لا تردّها الصّوارم والأسَل، ولا تفوتها ذئاب الغضا العُسلّ، قد فرقت بين مالك وعقيل، وأشرقت بعدهما جديمة بالحسام الصّقيل."[77]

77 – وغرق مركب القاضي أبي بكر بن عربي بشواطئ تونس عند عودته من الحج راجعا إلى الأندلس، وسلِم القاضي وضاعت الأمتعة... المقري، نفح الطيب ص 296 -792.

الشعراء يستاؤون من البحر

إن كان التجار والبحرية ومحبّو المغامرات قد ألفوا ركوب البحر مهما كانت الظروف والدّواعي كالغرق والأسر وإتلاف الأرزاق والمراكب الهشة والقرش (حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى) ومهاجمة اللّصوص وضربات العدو الغادر فإن بعض النفوس المسالمة الحريصة على أمْنها وسلامتها نفرت من هذا السّائل الذي لا يُغلب وتمسّكت بهذا القول الشائع في زمانهم:

ثلاثةٌ ليس لها أمَانُ   البحرُ والسّلطان والزّمان

وبرع الشعراء في إبراز مساوئ الأسفار بحرا وأفرطوا:

- قال الوقْشي (هشام القاضي أبو الوليد) وكان قدْ عزم على السّفر إلى الحجاز:

لا أركبُ البحرَ ولو انّني   ضَربتُ فيه بالعصا فانفلق
ما إنْ رأت عيني أمواجَه   في فِرَقٍ إلا تناهى الفَرَق [78]

-وقال ابن حمديس الصقلي وقد جال بين صقلية والأندلس والمغرب

أراك ركبتَ في الأهوال بحراً   عظيما ليس يُؤمن من خطوبه
تُسيّر فُلكهُ شرقاً وغرباً   وتدفع مِن صَباه إلى جنوبه [79]
وأصعب من ركوب البحر عندي   أموراً لجاتك إلى ركوبه

وقال الشاعر:

لا أركبُ البحرَ أخشى   عليَّ منه المعاطب
طين أنا وهو ماءٌ   والطينُ في الماء ذائب

وقال آخر:

انّ ابنَ آدم طين   والبحرُ ماءٌ يذيبه
لولا الذي فيه يتلى   ما جاز عندي ركوبُه

78 - نفح الطيب ج3 ص 377. وفى البيتِ الأول اقتباس من القران :" فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعِصاك البحرَ فانفلقَ فكان كلُّ فريق كالطوْد العظيم.."(الشعراء، 63).

79 - الرّياحُ أربع: الجنوب (القبلية) والشمال وهي الشمالية والصّبا وهي الشرقية والدّبور وهي الغربيّة.

وقد التحق بخيران صاحب المرية. قال ابن درّاج القسطلي من قصيدة طويلة واصفاً هيجان البحر:

لك الخيرُ قد أوفىَ بعهدك خيران — وبُشراك قدْ وافـاك عزّ وسلطانُ
إليك شُحنا الفُلكَ تهوى كأنـّها — قد ذُعرتْ عن مغرب الشمس غربانُ
على لُججٍ خُضر إذا هبّ الصَّبا — ترامـى بنا فيـها ثبيـّر وثهلانُ
اذا غيض ماء البحر منها مددنه — بدَمع عـيون تَمتريهـنّ أشجـان
وان سكنت عنّا الرّيحُ جرى بنـا — زفـيرٌ إلى ذكـرِ الأحـبّة حنـّان
أقول وموجُ البحر والهمّ والدّجى — تمـوج بنا فيـها عيُـون وآذانُ
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنـا — سوى البحرِ قبْرٌ أو سوى الماءِ أكفان
وهبنا رأيناً مَعلم الأرض هل لنـا — من الأرض مأوى أو من النّاس عرفانُ [80]

وكتب المعتمد بن عبّاد إلى أبي الحسن الحصري القـاطن بسبتة يستدعيه إلى إشبيلية فأجابه الشاعر:

أمرتني بركوب البحر أقطعه — غيري لك الخير فاخصص بذا الداء
ما أنت نوح فتنجيني سفينته — ولا المسيح أنا أمشي على الماء [81]

وكان الناس في الإمارات السّاحلية أو في كبريات المدن الشاطئية بالأندلس مضطرين إلى امتطاء المراكب إما للتموين أو لسفر ضروري عاجل أو في حالة حصار برّي أو لفرار من عدو فاجأهم والتصقت بهم فكرة التهويل والترهيب والنهاية الأليمة فلا يتصورون نزهةً بحرية مريحة أو رحلة هادئة أو رياحاً لطيفة أو أمواجا ساكنة.

قال ابن رشيق المسيلي وهو بصقلية وقد عزم على الرحيل مناجيا زوجته:

ولقد ذكرتُ في السّفينة والرّدى — متوقع متلاطمُ الأمـواج
والجوّ يهطِل والرّياحُ عواصفٌ — والليْلُ مسوّدُ الذوائب داج
وعلتْ لأصحاب السّفينة ضجّة — وأنا وذكراكِ في ألذ التناج

وحذا حذو من حذّر من ركوب البحر الأمير عبد القادر مفضلا الخيل والإبل على امتطاء القوارب:

سفائن البرّ بل أنجى لراكبها — سفائن البحر كم فيها من الخطر

---

80 - وسبب ركوب ابن درّاج البحر أن الأسفار البرية أصبحت غير مأمونة لكثرة القلاقل والفتن أيّام ملوك الطوائف. أما خيران - الزعيم الصقلي - فإنه بعد ان تخلّى عنْ علي بن حمود النّاصر صاحب قرطبة منذ 1016 استولى على المرية حتى قتل في صيف 1018. في أيامه بلغت المرية منتهى العمران وغدت من أمنع وأجمل ثغور الأندلس أما ثبيّر وثهلانُ فهما اسمان لجبلين.

81 - الصفدي: نكت الهميّان في نُكَت العميان ص 214.

ولم تكن أهوال الأمواج وحدها خطرا على الركاب بل هناك ما يعرّض حياتهم للهلاك قال ابن سعيد أبي عمران الأندلسي عندما نجا من لصوص البحر: [82]

انظر إلى مركبنا منفذا	*من العدا من بعد إحراز*
أفلت منهم فغدا طائرا	*كطير أفلت من بازي*

قال أبو جعفر بن البنّى وقد قرر السفر من الأندلس إلى المشرق. فلمّا صار في مايورقة على ثلاثة مجار عصفت ريح صرفته عن وجهته فلما لحق بالجزيرة اقام أياما ينتظر ريحا سانحة علّها تزجيه:

أحبتنا الألى عتبوا علينا	*فأقصرنا وقد أزف الوداع*
لقد كنتم لنا جذلا وأنسا	*فهل في العيش بعدكم انتفاع؟*
أقول وقد صدرنا بعد يوم	*أشوق بالسفينة أم نزاع؟*
إذا طارت بنا حامت عليكم	*كأن قلوبنا فيها شراع*

وقال يحي بن الحكم البكري الجياني المعروف بالغزال [83] وكان قد أرسله عبد الرحمن الثاني في سفارة إلى ملك المجوس في إحدى جزر السعادات(Açores) كان السفر إلى شلب ثم أبحر قاصدا ملك المجوس وأثناء السفر فاجئتهم زوبعة بحرية في ضواحي كنيسة الغراب في رأس فانسون [84] Cap Saint Vincente

قال لي يحي وصرنا	بين موج كالجبال
وتولّتنا رياح	من دبور وشمال
شقت القلعين	وانبتت عرى تلك الجبال
وتمطى ملك الموت	إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأي العين	حالا بعد حال

82 - نفح الطيب ج 2 ص 327.
83 - توفي بالقاهرة سنة 896 هـ/1235م.
84 - نفح الطيب ج 2 ص 259.

بحر الظلمات والمحاولات لاكتشاف أسراره

انشغل الناسُ، منذ الفتح الإسلامي، بأمر المحيط الأطلسي ومجاهله وألغازه فحاول أكثر من واحد تحدّى أمواجه واكتشاف أسراره وأطلق الناس العنان لأقلامهم في أخباره الواقعية والخيالية.

قال الشريف الإدريسي: البحر المظلم لا يعلم أحد ما خلف هذا البحر ولا وقف بشر منه على خبر صحيح لصعوبة عبوره وظلام أنواره وتعاظم أمواجه وكثرة أهواله وتسلط دوابه وهيجان ريحه...

وليس أحد من الربانيين يركبه عرضا أو ملججا وإنما يمر منه بطول السواحل ولا يفارقه وأمواج هذا البحر تندفع منغلقة كالجبال ولا ينكسر ماؤها

1- بعثة الخشخاش [85]

خاطر الخشخاش بنفسه (وكان من فتيان قرطبة) هو وجماعة من أحداثها بعد أن استعدّوا مراكب ودخلوا هذا البحر المجهول الأطراف وغابوا فيه مدّة ثم عادوا " بغنائم واسعة وأخبار مشهورة"[86]

2- مغامرة المغرّرين [87]

جماعة من شباب لشبونة ركبوا ذات يوم بحرَ الظلمات في القرن العاشر ليعرفوا ما فيه وإلى آين انتهاؤه وكانوا ثمانية كلهم أبناء عمّ قرّروا شق المئسع فصنعوا مركبا وشحنوه بالماء والزّادَ قدْرَ الكفاية لأشهرِ ثمّ أقلعوا في أولّ طاروس [88] الرّيح الشرقية

---

85 - اختلف الناس في هوية هذا الشخص فهلْ هو من أقاريب خشخاش البحري الذي أرسله الأمير محمّد في مهمة استطلاعيّة وبقي مدّة في المحيط؟ أم هو من أهل خشخاش بن سعيد بن الأسود الذي حكم البحرية في الأندلس سنة 245/260هـ -859م.

86 - الحميري (ابو عبد الله محمد) الرّوض المعطار في أخبار الأقطار ص 52.

الابشيهي المحلي (شهاب الدّين) المستطرف في كلّ فن مستظرف 2، 153

87 - لهم في لشبونة بقرب الحمة درْب منسوب إليهم يُعرف بدرب المُغرّرين.

وأخذ شكيب ارسلان القصة عن الشريف الأدريسي (نزهة المشتاق...) وربطها باكتشاف كريستوف كلومب لأمريكا (الحلل السندوسية في الأخبار والآثار الأندلسية ج 1 ص 93-98

وروى القلقشندي في صبح الأعشى قصة مماثلة لملك مالي في السودان الغربي (الحلل ص 96)

88 - طاروس الريح: هبوب الريح الشرقية.

فجروْا بها نحواً من أحَدَ عَشرَ يوماً فوصلوا إلى بحر غليظ الموْج كدر الرّوائح كثير التروس قليل الضوء فأيقنوا بالتلف فردّوا قلعهم في اليد الأخـرى وجروا في البحـر في ناحية الجنوب 12 يوما فخرجوا إلى أن لاحت لهم جزيرة الغنم وفيها من الغنم مالا يأخذه عدٌّ ولا تحصيل وهي سارحة لا ناظر لها ولا راعي فقصدوا الجزيرة ونزلوها فوجدوا عيْن ماء جارية عليها شجرة تين برّي فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومَها مرّة لا يَقدِر أحد على اكلِها فأخذوا من جُلودها وساروا مع الجـنوب 12 يوما إلى أن لاَحَت لهم جَزيرة فنظروا فيها إلى عمارة وحرْثٍ فقصدوا إلـيها ليروْا ما فيها فما كان إلاّ غير بعيد حتىّ أحيط بهم في زوارق فأخذوا وحُملوا في مركبـهم إلى مدينةٍ على ضفة البحر فأنزلوا بها في دارٍ فرأوا بها رجالاً شُقراً زُعْراً شعرُوهم سبطة وهم طِوال القدُود ولنِسائهم جمال عجيب فاعتقلوا في بيتٍ 3 أيّام ثمّ دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلّم باللّسان العربي فسألهم عن حالِهم وفيما جاؤوا وأينَ بلادُهم فأخبروه بكلّ خبرهم فوعدّهم خيراً وأعْلمهم أنه ترْجمان. فلمّا كان في اليوم الثـاني من ذلك اليوم أحْضرُوا بيْن يدي الملك فسألهم عمّا سألهم عنه الترجمان فأخبروه... وأنّهم اقتحموا البحرَ ليرَوْا ما فيه من العجائب وليقفوا على نهايته. فلماً علِم الملكُ ضحك وقال للترجمان:

أخبر القومَ أنّ أبي أمر قوماً من عبيده يركبون هذا البحر وأنهم جروْا في عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غيرْ فائدة.

ثمّ وعَدهم خيراً وصُرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جرْي الرّيح الغربيّة فعمر بهم زورقاً وعصبت أعيُنُهم وجرى بهم في البحر برْهة من الدّهر. قال القوم: قـدّرنا أنّه جرى بنا 3 أيّام بلياليها حتىّ جاء بنا إلى البرّ فأخرجنا وكتفنا إلى الخلف وتركنا بالسّاحل إلى أنْ تضاحى النّهار وطلعتِ الشمسُ ونحن في ضنكٍ وسُوء حال من شدّة الكتاف حتى سمعنا ضوضاء وأصواتَ ناسٍ فصحنا بجملتنا. فأقبل القومُ إلينا فوجدُونا بتلك الحال السّيئة. فحلّوا وثاقنا وسألونا فأخبرنَاهم بخبرنا وكانوا برابر فقال لنا أحدهم أتعلمون كمْ بينكم وبيْن بلدكم؟ فقلنا: لا فقال مسيرة شهرين فقال زعيم القوم وا أسفي فسَميّ المكانُ إلى يومنا أسَفي وهو المرسى الذي في أقصى المغرب...[89]

---

89 – الروض المعطار ص 61.

3- إيرلاندة وطرق صيد فراخ الآبلينة

(ايرلاندة) جزيرة في شمال الإقليم السادس وغربيّه. قال العُذري[90] ليس للمجوس قاعدة إلاّ هذه الجزيرة في جميع الدنيا.

في سواحلها يصيدون فراخ الأبْلينة (Baleine) وهو نوع عظيم جداً يصيدون أجَراءها يتأدّمون بها وذكروا أنّ الأجراء تتولّد في شهر أيلول فتُصاد في تشرين الأول والثاني في هذه الأشهر الأربعة وبعد ذلك يصلب لحمها فلا يصلح للأكل.

أمّا كيْفية صيْدها فقد ذكر العذري أنّ الصيادين يجتمعون في مراكب ومعهم نشيل كبير من حديد ذو أضراس حِداد وفي النشيل حلقة عظيمة قويّة وفي الحلقة حبل قوي فإذا ظفروا بالجروْ صفقوا بأيديهم وصوّتوا فيتلّهى الجروْ بالتصفيق ويقرب من المراكب مُستأنِسا بها فينظمّ أحدُ الملاحين اليها ويحُكّ جبهته حكّا شديداً فيستلذّ الجروُ بذاك ثم يضع النشيل وسط رأسه ويأخذ مطرقة من حديد قوية ويضرب بها على النشيل بأتم قوةٍ ثلاث ضربات فلا يحسّ بالضربة الأولى وبالثانية والثالثة يضطرب اضطراباً شديداً فربّما صادف بذنبه شيئاً من المراكب فيعطبها ولا يزال يضطرب حتى يأخذه اللّغوب.

ثم يتعاون ركّاب المراكب على جذبه حتى يصير إلى السّاحل وربّما أحسّت أمّ الجرو بإضطرابه فتتبعهم فيستعدّون بالثوم الكثير المدقوق ويُخوّضون به الماء فإذا شمّت رائحة الثوم ولّت (ضعف).

90 - أحمد بن عُمر من كتاب القر ن 11م.له" ترصيع الأخبار... وكتاب المسالك والممالك

البحر والخرافات

سرعان ما استولت على البحر الأساطير وشغف الناس بما لا يُعقل مكتفين بما يُمتع الخيال ويطربه. وكان أصحاب الرّحلات ومحبو القِصص العجيبة والمسامرات الخلاّبة في طليعة هذا النوع من الكتابات فاخترنا نماذج تُسَلّي وان ابتعدت عن كلّ واقع.

1 كتاب ألف ليلة وليلة

كَمْ استملح الأطفال قِصصَ السّندباد البحري في كتاب " ألف ليلة وليلة ".

"بالحيتان كالجُزُر." "انطلقنا في سير البحر إلى أن وصلنا إلى جزيرة كأنها روضة من رياض الجنة، فأرسى بنا صاحب المركب على تلك الجزيرة ورمى مراسيها ومد السقالة، فنزل جميع من كان في المركب في تلك الجزيرة، وعملوا لهم كوانين وأوقدوا فيها النار، واختلفت أشغالهم فمنهم من صار يطبخ ومنهم من صار يغسل ومنهم من صار يتفرج، وكنت أنا من جملة المتفرجين في جوانب الجزيرة، وقد اجتمعت الركاب على أكل وشرب ولهو ولعب، فبينما نحن على تلك الحالة وإذا بصاحب المركب واقف على جانبه وصاح بأعلى صوته، يا ركاب السلامة أسرعوا وأطلعوا إلى المركب وبادروا إلى الطلوع واتركوا أسبابكم واهربوا بأرواحكم وفوزوا بسلامة أنفسكم من الهلاك، فإن هذه الجزيرة التي أنتم عليها ما هي جزيرة وإنما هي سمكة كبيرة رسبت وسط البحر، فبنى عليها الرمل فصارت مثل الجزيرة وقد نبتت عليها الأشجار من قديم الزمان، فلما أوقدتم عليها النار أحست بالسخونة، فتحركت وفي هذا الوقت تنزل بكم في البحر فتغرقون جميعا، فأطلبوا النجاة لأنفسكم قبل الهلاك. فلما سمع الركاب كلام الرئيس أسرعوا وبادروا بالطلوع إلى المركب وتركوا الأسباب وحوائجهم ود سوتهم وكوانينهم فمنهم من لحق المركب ومنهم من لم يلحق، وقد تحركت تلك الجزيرة ونزلت إلى قرار البحر بجميع ما كان عليها وانبطق عليها البحر العجاج المتلاطم بالأمواج."

2 -أبو الفتح الابشيهي وكتابه المستطرف:

"واعلم أنّ بحر الظلمات لا يدخله شمس ولا قمر وأن بحر الهند خليج منه وبحر الصين خليج منه وبحر الرّوم خليج منه وبحر فارس خليج منه: وكلّ هذه البحار التي ذكرتها أصْلها من البحر الأسود الذي يقال له البحر المحيط "

وأماّ بحر الخزر وبحر خوارزم وبحر أرمينية والبحر الذي عند مدينة النحاس وغير ذلك من البحار الصغار فهي منقطعة عن البحر الأسود ولذلك ليس فيها جزْر ولا مدّ وقيل إنّما سمّي البحر الأسود لأنّ ماءه في رأي العين كالحِبر الأسود فإن أخذ منه الإنسان في يده شيئاً رآه أبيض صافيا فإذا صار ذلك الماء في بحر الرّوم تراه أخضر كالزّنجار وكذلك يُرى في بحر الهند خليج أحمر كالدم وبحر أصفر كالذهب وخليج أبيض كاللّبن تتغيّر هذه الألوان والماءُ في نفسه أبيض صاف.

قال الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب "كُنت في سفينـــة مع جـــماعة فدخـلنا إلى مجمع البحرين فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قطّ أهول منها ولا أقوى فكاد قلبي ينخلع وسقطتُ على وجهي أنا وغـيري ثمّ ألقت السّمكة نفسها في البحر فاضطرب البحر اضطراباً شديدً وعظمت أمواجه وخفنا الغرق فنجانا الله ورأيت في البحر سمكة كالجبل العظيم ومن رأسها إلى ذنبها عظام سودٌ كأسنان المنشار: كلّ عظم أطولُ من ذراعين وكان بيننا وبينها في البحر أكثر من فرسخ فسمِعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تُعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها نصفين.

...وسمِعت من يقول إنّ جماعة ركبوا سفينة في البحر فأرسوا على جزيرة فخرجوا إلى تلك الجزيرة فغسلوا ثيابهم واستراحوا ثمّ أوقدوا ناراً ليطبخوا فتحركت الجزيرة وطلبت البحر وإذا بها سمكة فسبحان القادر على كلّ شي. 91

3 - بحر الزّقاق

هو الداخل من البحر المحيط الّذي عليه سبتة يضيق من المشرق إلى المغرب بين الخضراء وطنجة.

وفي بعض الأخبار أنّه قبلَ افتتاح المسلمين البلاد المصرية بمائة سنة طمَى ماءُ البحر وزاد فأُغرق القنطرةَ التي كانت بين بـلاد الأنـدلس وبين ساحل طنجة من أرض المغرب وكانت قنطرة عظيمة لا يعلم لها في معمور الأرض نظيرٌ يُقال إنّها من بناء ذي القرنيْن مبنية بالحجارة تمُرّ عليْها الإبـل والدّواب من ساحل المغـرب إلى الأندلس وكان طولها إثني عشر ميلا في عرضٍ واسع وسُمُوٍ كثِير. وربّما بدت هذه القنطرة لأهل المراكب تحت الـماء فعرفوها والناسُ يقولون لابُدّ من ظهورها قبل فناء الدنيا... 92

المكان الذي نسي فيه فتى موسى سمكه.

---

91 - المستطرف في كلّ فنّ مستظرف ج2 ص 152 -153.

92 - الرّوض المعطار... ص 294 -295.

ثم هناك موضع يُعرف" بماء الحياة" عيون على ضفة البحر منبعثة بين أحجار من تحت شرف رمل طيبة عذبة يصل إليها الموج وينبط الماء العذب في هذا الرمل بأيسر حفر ويذكر أن بهذا الموضع نسي فتى موسى الحوت ويوجد في ذلك الموضع خاصة دون غيره حوت ينسب إلى موسى عرضه مقدار ثلثي شبر وطوله أكثر من شبر لحمه في أحد جانبيه والجانب الاخر لا لحم فيه إنما جلدته على الشوك ولحمه طَيب نافع في الحصاة مقوّ للباه. ثم مرسى لطيف يعرف بمرسى دنّيل...[93]

4 - موج بحر الزنج:

مَوْجُه عظيم كالجبال الشاهقات فإنه موج أعمى يريدون بذلك أنّه كارتفاع الجبال وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية لا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زَبَد كتكسّر موج سائر البحار ويزعمون أنّه موج مجنون وهؤلاء القوم الّذين يركبون هذا البحر من أهل عُمان من الأزد.[94]

5- جزيرة زابج:

من جزائر بحر الصين...وهي كبيرة في أقصى بلاد الهند. قال ابن الفقيه:[95] " بها سمكان شبه الادميين إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه ولهم كلام لا يفهم وبها أشجار وهم يطيرون من شجرة إلى شجرة وبها نوع من التسانيس له أجنحة كأجنحة الخنافيس من أصل الأذن إلى الذنب وفيها وعول كالبقر الوحشية ألوانها حمر منقطة بالبياض وأذنابها كأذناب الظباء ولحومها حامضة. قال زكرياء بن خاقان [96]: بجزيرة الزابج صنف من الببغاء بيض وحمر وصفر يتكلم بأي لغة تكون وبها خلق على صورة الإنسان يتكلم بكلام لا يفـهم يأكل ويشـرب كالإنسان... وقال محمد بن زكـرياء: من عجائب هذه الجزيرة شجر الكافور وهو عظيم جدا. الشجرة تظل 100 انسان وأكثر وينقر أعلى الشجرة فيسيل ماء الكافور عدة جرار ثم ينقر أسفل من ذلك وسط الشجرة فتنشر منها قطع الكافور وهو صمغ تلك الشجرة فإذا أخذا منها ذلك يبسَ..."[97]

---

93 - البكري المسالك والممالك ص 106.
قصة موسى والفتى قال الله تعالى" وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حُقُبًا فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتّخذ سبيلَه في البحر سَرَبًا فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَبًا" - الكهف 60-61.

94 - المسعودي، مروج الذهب.

95 - ابن الفقيه (أبو بكر ابن أحمد) توفي بعد 290/903.صاحب كتاب البلدان.

96 - اسم ملاح.

97 - القزويني (توفي 682هـ/1283م) عجائب المخلوقات وجزيرة زباج هي جاوا عند البعض.

6-منارة قادس العجيبة:

"كانت تشبه منارة الإسكندرية وكان ارتفاعها مائة(100) ذراع وكانت مربعة مبنية بالكذان الأحراش المحكم النجارة معقود بأعمدة النحاس الأحمر. وكان في رأس هذه المنارة مربع ثان قدر ثلث الأول وكان في راس هذا المربع الصغير شكل مثلث محدود له أربعة اوجه على كل وجه من المربع الصغير وجه من المثلث ففي راس تحديد المثلث رخامة بيضاء مربعة من شبرين في شــبرين. وعلى تلك الرخامة تمثــال على صورة ابن آدم من أبدع ما يكون في الإتقان واحسن ما يكون من الإنشاء ووجه لناحية المغرب مما يلي البحر ملتفتٍ على ناحية الشمال قد مد ذراعه إلى الشمال وقبض أنامله وأشار بسبابته إلى فم الخليج الخارج من البحر الأعظم المسمى بالزقاق المعترض بين طنجة وبين جزيرة طريف كأنه يرى المساك وقد اخرج يده اليمــنى تحت لحافه وقبـضها وفي يده عصى كأنه يشير بها إلى البحر فزعم كثير من الناس انه مفتاح وهم في ذلك على باطل من القول.

قال المؤلف لقد رأيته مرارا ولم أر في يده مفتاحا وإنما يظهر في يده شبه عود صغير لبعده من الأرض لقد اخبرني من حضر هدم الصنم وكان من العرفاء الذين حضروا هدم تلك المنارة أن الذي كان بيده عصى طولها 12 شبرا وفي رأسها شكاشف كالقرجلة وسياتي ذكر هدم تلك المنارة في موضعه.

وذكر المسعودي في كتاب "التنبيه والإشراف" على ما بلغه في بناء هذه المنــارة انه كانت من بناء الجبار الذي بنى السبعة أصنام في بلاد الإفرنج وزعم أنّ هذه يظهر بعضها من البعض.

وقال إن صح ما بلغنا عن صنم قادس انه إنما بني ليــكون دليــلا على الطــريق في البحر وإنما كانت يده اليسرى ممدودة على الزقاق كأنه يقول الطريق من هنا وكان كثير من الناس يزعمون أن هذا التمثال من الذهب الأحمر وذلك لأنه كان عليه نور شعشعاني يتلون عند طلوع الشمس وعند غروبها ومرة يخضّر ومرة يحمّر كعنق الحمام وكان الغالب على لونه الخضرة اللازوردية وكان للمسلمين في هذه المنارة دليل يدخلون له في البحر الأعظم ويخرجون له وذلك انه من كان يريد السفر في البحــر الأعظــم من هذا البحر الصغير إلى بلاد المغرب وإلى بــلاد اشبونــة وغيرهــا كانــوا يدخلون في البحر حتى تغيب المنارة فيقيمون قلوعهم ويأخذون إلى حيث شاؤوا من المراسي المغربية مثل سلا وانفا وبلاد السوس وازمور.

فمنذ هدم هذه المنارة (540هـ -1145م)انقطعت دلالتها وكان هدمها في عـام 540هـ في أول الفتنة الثائرة في الأندلس. هدمها علي بن عيسى بن ميمون حين ثار في قادس وطمع بان ذلك التمثال من الذهب فلما قلعه وجده من اللاطون وقد غسل بالذهب الطيب فجرد منه 12000 دينار من الذهب فبطلت حركته في البحر. وكان أهل الأندلس يظنون أن هذا طلسم على عمـل البحـر وانه متى هـدم لم يتغير في البحـر شيء ولا من سفره فالأمر واحد".

7-جزيرة الطرب:

وكذلك مما يلي هذه الجزيرة من المغرب جزيرة الطرب وهي جزيرة دورها مائة (100) فرسخ. قد ارتفعت عن البحر من كل ناحية كالعمود لا يستطيع أحد الصعود إليها لأنها مرتفعة في الهواء أكثر من مائة (100) ذراع. وقد تـدلت ثمـارها وأشجـارها على حافتها وتشابكت بعضها في بعض. يسمع كل من خطر عليـها من البحر أنواعـا من الطرب والملاهي مثل المزامير والكياتـير والعيدان والشيـزان بأنـواع مختـلفة من الطرب. فلا يقدر أحد ممّن يسمع ذلك أن يبرح من حول هذه الجزيرة لشدة الفرح والطرب. وكذلك يسمع في أحيان متباعدة صوت عظيم كصوت الرعد القاصف تفزع منه النفوس وتذهل منه العقول.

وإذا سمع أهل الصين ذلك الصوت أيقنوا بموت ملكهم أو أحد علمائهم. والله أعلم بذلك كله.

ويجمع في هذه الجزيرة مما يسقط من أعلاها كثير من الكبّابة والعود الصيني وكثير من الأفاوه.

8- جواري البحر:

وحول هذه الجزيرة تكون جواري البحر الموصوفات وهي حيتان في البحر لها آذان وأجنحة كأجنحة الطير ولهن رؤوس وأعناق مثل الادميين. غير أنها على صفة الجواري ولهن شعور تلعب على ماء البحر لا تظهر ولا تُرى إلا بالليل يُسَبّحن الله تعالى بأصوات مختلفات منها عـربية ومنها عجمية يخشع لها السـامع حتى يبكـي من خشية اللـه عز وجل. [98]

98 - الزهري كتاب الجغرافيا ص 216-217 و294-295.

القسم الثاني

الصّراع البحري

الحديث الشريف يحثّ على الجهاد بحرا

- حثّ الرسول (صلع) منذ بداية الرسالة على محاربة العدوّ على سطح الماء
- شهيد البحر مثل شهيدي البرّ (رواه ابن ماجة).
- لا يركب البحرَ الاّ حاجّ أو مُعتمر أو غاز.
- غزوة في البحر مثلُ عشر غزوات في البرّ (رواه أبو داوود).
- ناسٌ من أمّتي عُرِضُوا علي (وكان صلعم نائماً) يركبون ظهرَ هذا البحر
كالملوك على الأسرّة.
- شهيد البر يغفر له كل ذنب إلا الدين والأمانة، وشهيد البحر يغفر له كل ذنب والدين والأمانة.
- شهيد البحر مثل شهيد البر والمائد في البحر كالمتشحط في دمه في البر
وما بين الموجتين في البحر كقاطع الدنـيا في طـاعة الله وإن الـله -عز وجل- وكل ملك الموت بقبض الأرواح إلا شهداء البحر فإنه يتولى قبض أرواحهم ويغفر لشهيد البر الذنوب كلها إلا الدين ويغفر لشهيد البحر الذنوب كلها والدين.
- فضل غازي البحر على غازي البر كفضل غازي البر على القاعـــد في أهــله و ماله.

أورد الأحاديث الثلاثة الأخيرة الإمام جلال الدين السيوطي - المتوفى 911هـ-
× الجامع الصغير... (ج2 ص 41 و76)

التحوّل السريع

لم تمض سنوات قليلة حتى تطوّر المجتمع الإسلامي بحكم احتكاكه بالشعوب المجاورة وبموجب الطموحات من جهة ومواجهة الأعداء من جهة أخرى وسلاحهم الإيمان والأقدام والاستبسال.[99]

ولم يكن في عهد الرسول (صلعم) مشروع في الغزو البحري قال رسول الله لعلي بن أبي طالب: "يا علي آمن لأمتي من الغرق. إذا ركبوا الفلك أن يقولوا باسم الله المالك الرحمن وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماء مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم".[100]

واقتضى كلّ تحرّك عسكري - خارج شبه الجزيرة - التفكير والإعداد ووسائل الفتح وكان لابد لسياسة التوسع هذه من سفن وعتاد وآليات.

وكان ميلاد البحرية الإسلامية شيئاً عسيراً لعدة أسباب في طليعتها معارضة الخلفاء وندرة المواد الضرورية لبناء المراكب وفقدان اليد المتخصصة وممارسة الملاحة...

- عهد الخلفاء الراشدين:

- تحرك المسلمون بحذر عندما صمموا على اختراق البحر كغيرهم غير أن تحفظ الخلفاء أحجمهم وعطل المغامرات فوق الماء.

- تميز عهد أبي بكر (632م-634م) بالمعارضة لأية محاولة لإبحار المسلمين.

- كتب عمر بن الخطاب (634م-644م) إلى عمرو بن العاص والي مصر: "أن صف لي البحر" فرد عليه: "البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ودود على عود بين غرق وبرق[x]" ثم قال: "لايسألني الله عن أحد حملته فيه فأوعز بمنع المسلمين من ركوبه إلا من

---

99 - صدق عليهم قول الشاعر :

وحكم السيف لا تعبأ بعاقبة　　وخلها سيرة تبقى على الحقب

فما تنال بغير السيف منزلة　　ولا ترد صدور الخيل بالكتب

من المسلمين الأوائل الذين مارسوا المتسع بشر أو بصر ابن أبي عرتمة - من الصحابة -ولد بمكة قبل الهجرة بعشر سنوات وعيين واليا على الحجاز مدة ثم أبحر وهو في الأربعين وأصبح أول قائد بحري للمسلمين - وتوفي بالمدينة سنة 705 م

100 - ابن قتيبة عيون الأخبار ص 102.

x البرق هو الفزع والحيرة.

افتات عليه في ركوبه ونال منه عقابه. كما فعل بعرفجة بن هرثم الأسدي سيد بجيلة لمّا أغزاه عمان فبلغه غزوه في البحر فأنكر عليه وعنفه أنه ركب البحر للغزو. [101]

واغتنم المسلمون انتصارهم في وقعة اليرموك.[102] وبعد أن انهارت قوى بيزنطا وانفصل الشام على جسم الروم. ركز معاوية همه إلى فتـــح الساحـــل الفنقي قبل الشام ومصر.

وسمح عمر - بصفة استثنائية - سنة 691م بالغارة على الحبش رداً على هجومهم سواحل شبه الجزيرة.

وكتب معاوية إلى عمر يسأله الإذن في الغزو البحري فكتب له " إني لا أحمل المسلمين على أعواد (مراكب) نجرها النجار وجلفطها الجلفاط يحـملهم عـدوهم إلى عدوهم ".[103]

وسمح عثمان ابن عفان (644م-656م) لقطائع بحرية و- لحسابه الخاص- بركوب البحر فزاد بذلك نمو جدة بعد فتح مصر.

وأذن الخليفة لمعاوية بشرطين: أن يرافقه متطوعون وأن تصحبه زوجته. وكان ضمن البعثة عبادة بن سامت وزوجته أم هران.[104]

وشنت غارة بحرية على قبرص سنة (648م-649م) وأبحـرت من عكّا وانضمت إلى هؤلاء المقاتلين مجموعة مراكب أقلعت من الإسكندرية.

وتكررت الحملة (653-654) واستعمل المسلمون - رغم قلة الخبرة - تقنيات حملتهم إلى النصر. [105] فحتى يمكن الاقتراب من سفن العدو ومقاتلتها. استعمل المسلمون الرمي بالرماح والقاذفات. وحمو مراكبهم عند الإرساء بالسلاسل الثقيلة لربط قطعهم بعضهـا بـالبعض. وهكذا تمنع سفن العدو من خرق الحزام والوصول إليها. كما استخدموا الكلاليب التي تقطع حبال المراكب المعادية وأشرعتها. وبفتح قبرص دخل

101 - غير أن البلاذري يذكر أنه في سنة 15 هـ - أي 5 سنوات بعد وفاة الرسول أبحر أسطول عربي من عمان. وأرسى بتانة (boxcboy) بالهند ثم توجه نحو خليج ديبون (فتوح البلدان ص 413).

102 - اليرموك موضع بالشام - وكان القتال في صيف 636 هـ وقاد المسلمين خالد بن الوليد.

103 - الجلفاط - القلفاط: الذي يسد دروز السفن ويصلحها.

العدو: الملاحون وكانوا آنذاك من النصارى المعادين للمسلمين. العدو الثاني (الروم)

104 - استعان معاوية بالملاحين العرب من الأسد والغساسنة

105 - في إحدى المعارك بين المسلمين والروم وقعت حرب ذات الصواري.و"ذات الصواري" 655م وقعت في مياه الإسكندرية وكان القتال في البداية بالرماح والأحجار والسيوف. وعندما أمكن اقتحام سفن العدو أمر هرقل وابنه بتوقيف القتال لأنّ العرب أقوى منهم في عملية الإقتحام.(ابن عبد الحكم فتوح البلدان ط. 1922. ص 189.

المسلمون الأبيض المتوسط وقد زالت تخوفاتهم الأولى وهاهم في سنة 663م بسفنهم أمام القسطنطينية. 106 وأصبحت للمسلمين السيادة على الماء وتحول ميزان القوى لصالحهم ولم يكن الوصول إلى القسطنطينية بالشيء السهل. وكان على معاوية مواصلة الجهود لبلوغ الهدف: كإصلاح دار الصناعة بعكا قبل أن تنقل إلى صور وبعد أن توفرت الإمكانيات المادية كالخشب وتجنيد الصناع والملاحين. وكانت السفن قبل ذلك مربوطة بالحبال. وذكر المسعودي الفرق بين نوعية السفن المسمرة والمخيطة: قد أصيبت في البحر الرومي فيما بين جزيرة اقريطش ألواح مراكب الساج المثقبة المخيطة بليف النار جيل من مراكب قد عطبت تقاذفت بها الأمواج في مياه البحر وهذا لا يكون إلا في البحر الحبشي لا يثبت فيها الحديد لأن ماء البحر يذيبه فترق المسامير في البحر وتضعف فاتخذ أهلها الخياطة باللفيف بدلا منها وطليت بالشحوم والنورة. 107

وعندما عُيّن الحجاج بن يوسف واليا على العراق من قبل عبد الملك بن مروان ثم الوليد الأول كان أول من أنزل في الماء سفنا مدهونة بالقار.

قال الجاحظ: "أجرى السفن المقيرة غير المخرزة والمدهونة والمسطحة وغير ذوات الجوْجوْ. وكان أوّل من عمل المحامل". 108

- عهد بني أمية (660م – 750م)

شجّع معاوية المسلمين على ركوب البحر والجهاد على أعواده ليكسبوا مهارة الروم وخبرتهم ودرايتهم.

ولذا يعتبر معاوية أوّل من أسّس البحرية الإسلامية وانشأ السّفن وأرسل الحملات المظفرة ضدّ الروم أولاً كوالي على الشام ثمّ كخليفة.

توفرت الشواني وكانت تحمل الرّجال والأثقال وتشقّ البحار وترسي بسواحل الجزر والأقطار عندما نهضت مدن بمصر والشام وفلسطين بصناعة القطاع البحرية وتطوّرها.

ولاحظ المؤرّخون ومن تتبع شؤون البحرية الإسلامية هذا التطوّر السّريع قال المستشرق ولهوسان:

---

106 - كان الحصار الأول سنة 673- و الثاني 713-717.
ذكر المؤرخون أن عبد الله بن قيس غزا خمسين مرة على بيزنطة وفتحت رودس على يد أبي أمية الأزدي سنة 52هـ. اقريطش سنة 55هـ (و بقيت في يد المسلمين إلى 345هـ).

107 - مروج الذهب ج 1 ص 140.

108 - المخرزة: التي فيها نمنمة وتحبير - وجؤجؤ السفينة :صدرها - والمحامل (ج محمل) شقان على البعير يحمل فيهما العديلان - (كتاب الحيوان ج 1 ص 82).

"إنّ العرب، رغم نفورهم من الماء اجتازوا عهد الجمال والقفار إلى عهد السفن والبحار" 109

اهتمام المسلمين بالمغرب:

لقد أوعز الخليفة عبد الملك بن مروان (685م-705م) إلى أخيه عبد العزيز وكان واليا على مصر: " أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا ترشبين (تونس) وكتب إلى حسان بن النعمان يأمره بأن يبني لهم دار الصناعة تكون قوة وعدة للمسلمين وأن يجعل على البربر الخشب لإنشاء المراكب.

ولم يختر المسلمون قرطاج المعرّضة دوما لهجمات الروم وفضلوا تونس لأنها أكثر أمنا فبادروا بتنفيذ أوامر الخليفة ثم استعدوا لضرب السواحل النصرانية وأن يجاهد ابن النعمان الروم في البر والبحر ليشغلهم عن القيروان.

– وقبل ذاك كان افتتاح طرابلس على يد عمرو بن العاص سنة (642 م). ومرسى المدينة أحسن متسع تقرب المراكب فيه من البرّ وتصطف هناك اصطـفاف الجـياد في أواريها.

– وأتى البكرى بتفاصيل عن نهضة تونس في هذا الميدان واستعدادها لمهامّ جديدة.

وتتابعت الغزوات بدون انقطاع ونسرد هنا أمثلة تبين عزم المسلمين على كسْب الجزر والهيمنة على قسطٍ كبير من البحر.

84هـ/703م عبد العزيز بن مروان يبعث حملة بقيادة عطـاء بـن رافـع الهذّلي على ساردينية.

85هـ/704م نظم موسى بن نصير حملة "النبلاء" بقيادة ابنه عبد الله الذي أرسى بالسّاحل الغربي لصقلية فخرّب ونهب.

86هـ/705م أرسل موسى بن نصير أسطول إفريقية بقيادة عياش بن اخيال لضرب جزر العدوّ وهاجم سيراكوزا.

707/89م سلّم موسى بن نصير القيادة لعبد الله بن مرّة الذي هاجم ساردينية فخرّب عددا من مدنها.

89هـ/707م كلّف موسى بن نصير ابنه عبد الله لمهاجمة مَايُورْقَة.

92هـ/710م تتكرّر الحملةُ ضدّ ساردينية.

---

109 - Hoeruerbach (w.)la marina araba del mar mediterraneo en tempo de Mu'awiyya. Institut Moulay el Hasen, S D ni L.(30P.)Malgré leur aversion pour l'eau. les Arabes firent leur passage du désert du chameau à la mer et au navire d'une manière étonnement rapide

حملة ضد صقلية بقيادة موسى بن أوس الأنصاري.

102هـ/720م محمد بن أوس الأنصاري يشنّ حملة على صقلية وبشر ابن صفوان

102هـ/720م الكلبي حملة على نفس الهدف.

109ه/727م بشر بن صفوان الكلبي يُهاجم صقلية.

110ه/728م حملة أخرى على صقلية بقيادة عثمان بن أبي عبيدة بن عقبة وفي نفس السّنة ثانية بقيادة المستنير بن الحبحب.

112هـ/730م ثابت بن الهيثم يقود غارة على صقلية.

114ه/732م عبد الملك بن قطان يُغير على صقلية.

115ه/732م عبد الله بن زياد يُغير على ساردينيه.

117ه/735م عبد الله بن الحبحب يُهاجم صقلية.[110]

وقائمة الأنشطة البحرية طويلة يظهر منها أنّ الهدف كان صقلية وسردانية بالدّرجة الأولى لما لهتين الجزيرتين من أهمية بالنسبة للمسلمين.

وفي نفس الوقت تواصلت سياسة الإنشاء والتجهيز في عهد بني أمية من خليفة لآخر وخاصّة عبد الملك بن مروان (685م-705م) الذي وجد في حسان بن النعمان (698م-701م). القائد الذي يعول عليه. وفي أيّام عبد الله بن الحبحب (731م-741م) أحدثت دار الصناعة بتونس. كما عُرف عن موسى بن نصير قبل ذلك الخبرة العالية بشؤون الأبيض المتوسط.

وفطن المسلمون منذ البداية لما تشكله جزر الحوض الغربي وخاصّة الجزر الشرقة (Baleares) من خطر على استقرار دعائم الحكم الإسلامي في المغرب ومن ثمة تم فتح الأندلس.[111]

---

110 - SEBAG (P.)Les Expéditions maritimes des Arabes du VIII émé siècle. Cahiers de Tunisie, 1970, pp41-56.

111 - أما بنو العبّاس فقد عَاشوا أوضاعاً مختلفة. ففي البداية توقّف نشاطهم البحري في مصر والشام ما يقرب من نصفِ قرن واشتغلت الدّولة أثناءه بخراسان لاسيّما وقد كفَ الرّوم - نوعاً ما - عن مهاجمة المسلمين وأن المغرب والأندلس انفصلا عن المشرق سياسياً.

غير أن الخليفة هارون الرشيد(786م-809م) أبدي اهتماما جديدا بشؤون البحر وأمر المتوكّل بن المعتصم ترتيب المراكب في جميع السواحل وأن تُشحن بالمقاتلين وغزا حميد بن معيوف قبرص عندما نكث أهلها العهد مع المسلمين.

أما اقريطش ذات الموقع الجغرافي الممتاز (وسط الأبيض) والمجاورة لرودس فيقول ياقوت الحموي" لقد أصبحت الجزيرة أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم".

وتم فتحها سنة (827م-828م) على يد مغامرين اندلسيين وقد قرضهم الحكم الأموي إثر شغب قاموا به بضواحي قرطبة.

جزر الحوض الغربي - شواطئ الأندلس - شواطئ المغرب الأدنى والأوسط

المغرب والصراع البحري

بنو الأغلب ومغريات البحر

بادرت دول المغرب آنذاك بالتصدّى لمحالاوت الروم والرد على أطماعهم وكان ذلك على يد بني الأغلب (800م-909م) الذين أسسّوا دولة بالمغرب الأدنى أيّام بني العبّاس واختاروا أوّلاً القيروان عاصمة لهم ثمّ انتقلوا إلى رقادة.[112]

ومن جليل أعمالهم فتح صقلية على يد زيادة الله الأوّل(201هـ-223هـ /813م-838م) بقيادة الأسد بن الفرات [113] وبعد محاولات سبَقت قادها معاوية بن حديج ولم يفتح اللهُ على يده [114].

دخل المسلمون بلرمو سنة 827م وكان فتح هذه القاعدة وسيلة للاستيلاء على الجزيزة كلّها. ثم فتحوا قوصرة Pantelleria.

ولم يتوقّف زحْفُ المسلمين إذ في عَهْدِ محمّد (841م-856م) وقعت في أيديهم (843م) مدينة ميسين (Messine) وفي عهد إبراهيم الثاني جاء دور سَرَقوسة كان بنو الأغلب سبّاقين لإنشاء أسطول حوّل إفريقية (المغرب الأدنى) إلى دولة بحرية لعبت دوراً في المتوسط.

وفي ذلك الوقت أصبحت مدينة قُابس التونسية قاعدة بحرية صحراوية في آن واحدٍ فالصّحراء متصلة بها والبحر قريب منها جدّاً فكانت أحقّ بقول ابن عينية يصف سفنها:

من سُفن كالنّعام مقبلة ومن نعامٍ كأنّها سُفنُ.

---

112 - مؤسس الدولة الجديدة إبراهيم بن الأغلب التّميمي سنة 184هـ وبقيت إلى أن قضى عليها أبو عبد الله الشيعي بدعوة الفاطميين سنة 296هـ.
ورقّادة قرب القيروان من صنع إبراهيم الأصغر سنة 264هـ.

113 - كان قاضياً عندما تسلّم قيادة الجيش الفاتح لصقلية فانفصل عن القضاء وكان شيخ الفتية وسار بجيشه بدون خبرة بحرية وجاهد الرّوم بصقلية إلى أن استشهد وهو محاصِر لسرقوسة (ربيع الأول 213هـ) ودُفن هناك.

114 - قال ابن عبد الحكم...ولي عبيدة ابن عبد الرحمن افريقية سنة 110هـ.فلما قدم...وجه المستير ابن الحبحاب الحرشي غازيا إلى صقلية فاصابتهم ريح فغرقوا ووقع المركب الذي فيه المستير الى ساحل طرابلس... وسبب فشل المهمة عدم حسن اختيار الوقت المناسب وعدم التجربة.وكانت الغارة الاولى على صقلية انطلقت من الشام.

- الفاطميون (909-1171) وتطور البحرية [115]

بدأ نشاطَهم بالمغرب الأدنى بإنشاء المهدية فانتقلوا من رقــادة بعــدما قـرّر أبو محمّد عبيد الله الإقامة على السّاحل سنة 921م وكان هدفه الشرقَ الأوسط والبحر الأبيض.

وموقع المهدية ممتاز. قد أحاط بها البحر من ثلاث جهات.

وبعد إتمام البناء والتحصين أصبحت المهدية مرفأ [116] لسُفن الإسكندرية والشام وصقلية والأندلس وصار- كما قال صاحب الرّوض المعطار- " من عجائب العالم فإنه منقور في حجر يَسعُ ثلاثين مركباً ".

وكان لإنشاء المهدية أعظم الأثر في تدعيم الأسطول الفاطمي في إفريقية. ولتأمين المرسى من الأخطار أقام المهدي على ضم هذا المكان بسلسلة من حديد يرفع أحد طرفيها عند دخول السّفن ثمّ تعاد كما كانت تحصينا للمرسى من دخول مراكب الروم.

أمّا دار الصناعة فكانت بشرقي قصر عبيد الله وتسع أكثر من مأتيْ مركبٍ وفيها قبْوان (بناء على هيئة قبّة) كبـيران طويـلان لآلات المـراكب وعُددهـا لئلا ينالَها شمــس أو مطرٌ.

وسرعان ما أصبحَ المرسى - زيادة عن دوره التجاري - قاعدة عسكرية تخوض المعارك البحرية فتعدّدت الفتوحات وغزا الفاطميون جـنوب فرنـسا ومدينـة جنوة ثمّ مدينة بيـزا (1011مم- 1014م) وفـاق الفاطميـون الأغـالبةَ في الجـهاد البحـري كما نافـسوا بني أمية في الأندلس.

وقد بلغت بحريتهم المستوى العالي قبل أنْ يلتحقوا بمصر (316هـ/936م). وكانوا يسمّون من ركب البحر للجهاد "غـازي البحر".

وأُعجب الشعراء بهذا المكسب الجليل المرعب للأعداء قال الشاعر علي بن محمّد الأيادي التونسي يصف هذه الوحدات في عهد الخليفة محمّد القائم (22هـ/934م).

---

115 - لا نتناول هنا الا الانجازات البحرية في عهد عبيد الله وابنه القائم وحفيده المنصور وابن حفيده المعز لدين الله.

116 - كانت رقادة - مقر بني الأغلب -وسط سهل واسع تصعب فيه حماية عاصمتهم في حالة غارة. أمّا المهدية فهي على ساحل القيروان على طرف البحرين بين سوسة وسفاقس مرفأ حرب يمتاز بالمناعة والتحصين وبفضلها تحولت الدّولة الجديدة إلى دولة بحرية.

أعجِبْ بأسْطولِ الإمام محمدٍ وبحسنه وزمانه المستغـرب
لبِست بِهِ الأمواجُ أحسَنَ منظر يبدو لعيْنِ النّاظر المتعجب
شرعوا جوانبها مجاذف اتبعت شادي الرِّياح لها ولمّا تتْعَب
والبحرُ يجمع بينهما كأنّـه ليلٌ يُقرب عقرباً من عقرب
وعلى جوانبها أسودُ خلافة تختال في عدد السلاح المذهب

- كان العصر الذهبي للدّولة في المغرب عهد المعزّ لدين الله (341هـ-365هـ/953م-975م) يقول أحد المؤرّخين: "كانت مراكب العرب تقطع البحر الأبيض عرضا في ستة وثلاثين يوماً من مبدئه بالمغرب إلى آخره بأنطاكية. وتدعيماً لسياسته وسلطانه رأى المعز أن يستغلّ صيت الشعراء الفحول وقرائحهم فقرّبهم إليه وانتفع بقريضهم.

وهذا بن هانئ الأندلسي، يصف الأسطول الحربي بإفريقية:

أمّا والجواري المنشآت التي سرت لقد ظاهرتها عُدة وعديد
قباب كما تزجى القباب على المها ولكن من ضمّت عليه أسود
ولله ممّا لا يرون كتائب مسومة تحدو بها وجنود
وان الرياح الذاريات كتائب وان النجوم الطالعات سعود
وما راع ملك الروم إلاّ اطلاعها تنشر أعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبيره له بارقات جمّة ورعود
مواخر في طامي العباب كأنّه لعزمك بأس أو لكفّك جود
من الراسيات الشمّ لولا انتقالها فمنها قنان شمخ وريود
من الطير إلاّ أنّهن جوارح فليس لها إلاّ النفوس مصيد
من القادحات النار تضرم للصلى فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج كما شبّ من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق وأ فواهنّ الزافرات حديد
لها شعل فوق الغمار كأنّها دماء تلاقتها ملاحف سود
يشب لال الجاثليق سعيرها وماهي من ال الطريق بعيد

ولعب الصقالبة أيام الفاطميين دورا في البحرية انطلاقا من المغرب.[117]

---

117 - أحمد المختار العبادي: في التاريخ العبّاسي والأندلسي ص 395/ وتم وصف السفن الحربية وهي تسير في البحر وتقذف أنفاسها صواعق ونيراناً وعلى متنها الجنود.

كان صابر قائد الأسطول الذي أقلع من الشاطئ التونسي سنة 928م وأغار على سواحل إيطاليا واستولى على مدينة طارنة Tarente قبل أن يغير على نابلي. وفي 929م حاصر الأسطول اليوناني في بحر ionienne. ولم يكن الصقلبي الوحيد في خدمة الفاطميين، فهذا جعفر بن عبيد الله المدعو "صعلوك" قاد الأسطول الفاطمي وذهب سنة 924م لمهاجمة صقلية وكلابرا. وهذا مسعود يغير هو الأخر على كلابرا وقبيل استيلاء الفاطميين لمصر كان نصير على رأس قاعدة المهدية

وقضى على هذه القوة: أولا التنافس الشديد بين دولة بنى أمية في الأندلس ودولة الفاطميين فكثرت الاصطدامات بينهما سرعان مـا قضت على هذه القوّة وسـرعان ما انتفع منها أعداء المسلمين. ثانياً في أواخر العهد الفاطمي (القرن 6) تراجعت البحرية الإسلامية وضعف أمرها عندما انتقل العبيديون إلى مصر.

قال ابن خلدون: "حتىّ إذا أدرك الدّولة العبيدية (بمصر) والأموية (بالأندلس) الفشلُ والوَهَن وطرقها الاعتلال مدّ النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وغيرها فملكوها وألحّوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكّا واستوّلوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغيرها..." 118

ضعفت البحرية في القرن السادس ولكنها ما فتئت أنْ عادت إلى قوتها وسطوتها في أواخر هذا القرن، ففي عهد الموحدين بقيت المهدية الهدف الرّئيسي للنصارى يريدون غزوها أو الاستيلاء عليها مهما كان الثمن.

فعندما توفي يحي بن تميم سنة 509هـ. وولي جده ابنه على المهدية وقعت الوحشة بينهُ وبين لجار.

قال محمّد بن بشير:

وأعددتَ للأعداءِ كلَّ مُصمصم ... يسيرُ إليهم قاصداً وهو أهْوجُ
كمثل الرّواسي منعةً غيرانـّها ... على ثبَجِ الدأماء تسرى وتُدْلِج
كأنّ القنا والنّبل في جنبـاتها ... سَيالٌ بأكناف الهضاب وعَوْسَج
يُعيدُ مضيُ الجوّ أقتمَ حَالكـه ... دخانُ لظى من نارها يتوهـّج
إذا نضنضت من ألسن لهيبـه ... بمارح نـار يستقـل ويعـرجُ
رأيت صِلالا أخرجت من جهنّم ... تحرّق أعباد العداة وتنضـج

118 - المقدّمة ص 268.

بقيت الفتنة بين الطرفين متأكدّة إلى أن تُوفي عليٌّ وخلفه ابنه الحسن فكاتب أميرَ الملثمين بالمغرب وهو علي بن يوسف بن تشفين (1106م-1142م) " واتفق بإثر ذلك أنْ وصل أسطول على بن يوسف مع قائده عليٍ بن ميمون إلى بلاد لجار فاستفتح منها حصونا وسَبَى منها.

الأندلس مهد البحرية الإسلامية

مرّت البلاد منذ الفتح (711م) بمراحل سياسية خطيرة فبعدَ عصر الوُلاة من قِبل دمشق (وعددهم نحو 20) خلفه عهد الأمراء 5 (750م-788م) ثمّ قامت الخلافة الأمويّة (300هـ - 224هـ/ 912م- 1301م) مستقرة بقرطبة منذ عبد الرحمن الثاني 822م-852م).

وتداول على المملكة زمن القوةِ والاستقرار والتماسك أنجبت البلاد أثناءه رجالاً عظاماً أكسبوها النظامَ والهيبة والإشعاع أمثال عبد الرحمن الثالث (النّاصر لدين الله 912م-921م)، والمستنصر والحاجب المنصور بن أبي عامر. ثم تلاه زمن الفتور والضعف والتفريط لما شيده الأوائل وانعكس الوضع السياسي على البحر والبحرية.

لقد شعر المسلمون منذ البداية بِضرورة إنشاء أسْطول للرّبط بين العدوتين معتقدين أن البحرَ همزةُ وصل لا حاجز فَصلُ.

فلا يستطيع أهل البلاد العيش بدون الاتصال بأرض الإسلام إلا عن طريق الماء فأحسوا بضرورة امتلاك السفن لطول السواحل بواجهتيها المتوسطية والمحيطية والحاجيات إلى المراكب لحراسة الشواطئ والإتصال الدائم بالجزر الشرقية (البليار) وكانت المهام في تزايد كعبور المضيق والصيد البحري والمبادلات التجارية وغيرها. [119]

ولم يُعرف عنهم، قبل القرن التاسع ملاحة تذكر في الأبيض المتوسط ولا بَحْرية مُنظمة قبل عهد عبد الرحمن الثاني (228هـ-258هـ). ولذا بقيت وسائل الدفاع عن الثغور والشواطئ معدومة أو مهملة إلى أن أغار عليها المجوس مرة أولى سنة 230ه/844م فلم يجد المسلمون قوةً بحرية قادرة على ردهم.

مركب للقراصنين النرمان استخرج سنة 1904 من حفريات Osberg

---

119 - وسبق لبعض الأمراء والأعيان - كلّما اشتدّت الزوابع السياسية - وخافوا على أنفسهم وأموالهم وأقاربهم واستعدوا للفرار بحرا ولهذا الغرض امتلكوا سفنا للإفلات من العدوّ.

بنو أمية والمحيط الأطلسي

إن معظم الأحداث للتاريخ البحري في الأندلس دارت على الواجهة المتوسطية مثل المشاركة في فتح صقلية واقريطش وتطور بجّانة والهجومات على الجزر الشرقية(Baléare). كما كان للنمو الاقتصادي بين الأندلس وبقية الأقطار الإسلامية المنارة - المرية وأحياناً دانية.

1- هجوم المجوس [120] وما ترتّب عليه:

استمرت غارات المجوس على أرض الأندلس سنوات: 844م - 858م -861 - 966-971، كانت غارتهم الأولى على الأندلس أيّام عبد الرحمن الثاني سنة 230هـ/844م في أسطول يحتوى على 54 سفينة من الحجم الكبير ومن بينها le gokstad النرويجي المتميّز بطوله 21، 9متراً وعرضه 5 في الوسط يتحـــرّك ب 16 مجـــذفا ويقدر على حمل 70 مقاتلا.

يضاف إلى هذا عدد من المراكب الصّغار وقد أرست في مصبّ التاجه (التاجوة: le Tage) ثم أقلعت المجموعة نحو الجنوب ونزل بعضهم على ساحل شدونة (Sidonna) فاحتلوا مينا قادس وادى آش Cadix وتوغلوا في الوادي الكبير حتىّ اقتربوا من أشبيلية.

وأعطى النويري رواية مفصلة نقتبس منها قوله:

خروج المشركين إلى بلاد الإسلام بالأندلس وفي سنة 230هـ-844م خرج المجوس في أقاصي بلاد الأندلس إلى بلاد المسلمين وكان أول ظهورهم في ذي الحجة في سنة 229 هـ عند اشبونة فأقاموا بها ثلاثة عشر يوما كان بينهم وبين المسلمين فيها وقائع ثم ساروا إلى قادس ثم إلى شذونة وكان بينهم وبين المسلمين وقعة عظيمة ثم قصدوا اشبيلية في ثامن المحرم فنزلوا على اثني عشر فرسخا منها فخرج إليهم المسلمون فهزمهم العدو في ثاني عشر المحرم وقتل كثير منهم ثم نزلوا على ميلين منها فخرج أهلها إليهم فانهزموا في رابع عشر المحرم وكثر القتل والأسر فيهم فلم يرفع المجوس السيف عن أحد وعلى عن دابة ودخلوا حاضرة اشبيلية وأقاموا بها يوما وليلة وعادوا إلى مراكبهم فوافاهم عسكر عبد الرحمن فبادر إليهم المجوس فثبت المسلمون وقاتلوهم فقُتل من المشركين سبعون رجلا وانهزموا ودخلوا مراكبهم وأحجم المسلمون

---

120 - المجوس عند المسلمين (les vikings) و يقال لهم أيضا الروس شعوب شمالية انطلقوا من اسكندينافيا (النرويج والدانمارك والسويد). يقول فيهم أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المتوفى في أواسط القرن 6 م): "كانت لهؤلاء شدة وبأس وقوة وجلد على ركوب البحر وكانوا متى خرجوا أخلت منهم سواحل البحر مخافة منهم وكانوا لا يخرجون إلا في أربعين مركبا وربما بلغوا المائة مركب ويغلبون كل من لقوه في البحر ويسبونه ويأسرونه..."

عنهم فسيّر عبد الرحمن جيشا آخر فقاتلهم المجوس قتالا شديدا ورجعوا عنهم فتبعهم العسكر في ثاني شهر ربيع الأول وقاتلوهم وأتاهم المدد من كل ناحية فنهضوا لقتال المجوس من كل جانب فانهزم المجوس وقتل منهم نحو 500 رجل وأخذوا منهم أربعة مراكب فأخذوا ما فيها وأحرقوا ثم خرج المجوس إلى لبلة فأصابوا شينيا ونزلوا بجزيرة بالقرب من قوريس فقسموا ما كان معهم مما غنموه فدخل المسلمون إليهم في النهر فقتلوا رجلين ثم رحل المجوس فطرقوا شذونة فغنموا أطعمة وسبيا وأقاموا يومين فوصلت مراكب عبد الرحمن إلى اشبيلية فلما أحس بها المجوس لحقوا بلبلة فأغاروا وسبوا ثم لحقوا بأكشونبة ثم مضوا إلى باجة ثم قفلوا إلى مدينة اشبونة ثم ساروا فانقطع خبرهم عن البلاد فسكن الناس...

وفي نفس السّنة تجدد الخطر، واعترف أهل أشبيلية أنّهم لا يستطيعون شيئاً لانّ مدينتهم معدومة التحصينات وأن المراكب الإسلامية التي أرسِلت لعين المكان أُحرِقت ونُكّلَ بالمسلمين شرّ تنكيل وسيق النساء والأطفالُ إلى الأسر ودامت المأساة أسبوعاً كاملا.

وعندئذٍ سَارع عبد الرّحمن الثاني بمطاردة المغيرين وألحَق بهم خسائر وكَانت المعركة الفاصلة يوم 25 صفر 230هـ/1 نوفمبر 844م قُتِل فيها أزيد من ألف مجوسي وأسِر المئات ولاذ بالفرار الباقون. [121]

وكان لهزيمة هؤلاء الغزاة دَويٌّ عظيم وأصْداء واسعة في المغرب.

واستخلص عبد الرحمن الدّرس فبادر ببناء الحصون [122] وإنشاء دور الصناعة باشبيلية ومراكز للمراقبة طول السّاحل الأطلسي كما أكثر من إنشاء السّفن الحربيّة وجنّدت السّلطة رجالَ البحر وقدّمت لهم أجوراً مشجّعة وحصّلت على عتادٍ لائقٍ وآليات لرمي النفط.

وما هي إلا سنوات، أيّام الأمير محمّد (258هـ-886م) حتى أعاد المجوس الكرة. فقدم الأسطول المجوسي سنة 244هـ/858م في 64 قطعة فوجدَ العدوُ هذه المرة أمامَه بحريةً إسلامية تتحرّك وتراقب السّاحل الشرقي إلى الحدود الفرنسية.

---

121 - سبق هذا الهجومَ غاراتٌ نصرانية في عهد الحكم الأوّل (697 - 228) وعبد الرحمن الثاني (228 - 258) أقام بها الفنسو الثاني (197 - 228) وهاجم لشبونة ونهبها وقد تراخى الأمويون رغم فرض سلطانهم على المغرب إلى أن فوجؤوا بالمجوس.

وكان السبب في إهمال الساحل الغربي أن بني أمية شغلوا كثيرا بالدفاع عن المضيق وعن جنوب شبه الجزيرة فكانت غارات المجوس المحرك لتنشيط الواجهة الغربية.

122 - من الحصون - حصن أبي دانس وهو اسم منشئه أبو دانس العوسجي المصمودي ويعرف المكان بـ: Alcasar do sal

وحدث لسفينتين مغيرتين سنة 245هـ/859 تقومـان بمهمّة استطلاعـية أنْ وقـعتا في يد المسلمين تحملان ذهباً وفضّة ومؤناً وأسرى.

وبفضل اليقظة أصبحت إشبيلية أوّل قاعدة بحرية للسّلطة المركزية.

أمّا بقية السّفن المعادية فغادرت المكان ونزلت بالجزيرة فخرّبت ونهبت وأحرقت المسجد الكبير ثمّ أقلعت وواصلت السّير حتى اقتربت من مرسية ثم واصلت مجموعة منها شقّ البحر جنوباً إلى أن بلغت الناقور – قرب الحسيمة– بالمغرب الأقصى.

تغلب المجوس على الأهالي ونكلوا بهم (إلا من خلصه الفرار) (البكري) ثم غادروا المكان بعد احتلال دام 18 يومًا ورجعوا إلى الأندلس فتكبدوا خسائر في السفن والأرواح.[123]

وكانت قطع الأمير محمّد الأول لها بالمرصاد فبددتها عند العودة وفرّقت جمعها وأحرقت سفينتين واستولت على أخريين وأغرقت أزيد من 40 ومن نجا من النصارى فقد التحق بالجزر الشرقية.

وكان على رأس الأسطول الإسلامي خشخاش البحري [124] وابن كشوحٍ ومنذ ذلك الحين امتدّ نشاط المسلمين إلى المحيط. وقد صُنِعت بقرطبة المراكب الكبرى قادها عبد الحميد بن مغيث مطارداً كلّ عَدوّ ظهر على البحر وفى الرّبع الأخير من القرن التاسع أصبح المحيط مفتوحاً لا يخُيف أحداً ولا يُكوّن حاجزاً في وجه البّحارين [125] ويعودُ الفضلُ للأمير محمّد صاحب البرنامج الأول من نوعه. [126]

وهكذا شاهد عصر بني أمية بفضل الإمكانيات المالية والعسكـرية عناية فائـقة في إعداد الأسطول.

---

123 – من بين الأسرى المسلمين أميرتان هما: آمة الله وخنولة بنتا الواقف بن المعتصم بن صالح فسارع الأمير محمد بن عبد الرحمن بفدائهما.

124 – أسرة الخشاخشة كبيرة في ذلك العهد. استقرت منذ 245هـ/859م ببجانة (قرب المرية) ومنهم خشخاش بن سعيد بن الأسود ومنهم خشخاش البحري الذي كان على رأس الأسطول سنة 245هـ/859م وهناك آخرون باشبيلية وبالمرية وكلّهم من سادة البحر.

125 – بدأت وحدات إشبيلية تبتعد عن ميناء القيد حتى إمتد تواجهها من المحيط إلى وادي دويرو douro.

126 – عرقلت الفتن والقلاقل (منها ثورة ابن حفصون) والنزاع على الثغور بين الأمويين وألفونسو3.

وفي أيّـام عبد الرّحـمن الثالث (219هـ-961م) أصبـح مقرّ القوات البحرية - منذ 933م- بالمرية [127] واستخدم الخليفة الجماعات المستقرة ببجانة. [128]

ورجع لألمرية نشاطها ودورها وقد تفقّدها الحكم الثاني سنة 353هـ/964م لمعاينة البناءات الدفاعية والتجهيزات الضرورية ولتفتيش الأسطول البحري وقد بلَغ مجموع الوحدات 400.

واستخدم الخليفة جماعات من الملاحين الموجودين ببجانة Pechina.

وأصبحت المملكة تُولي أهمية كبرى لكل ما يتعلق بالبحر فامتلكت بجانب وحدات المراقبة لدَحْر العدو مراكبَ تجارية شقت البحار في كل اتجاه.

ولزم هذا إحداث وُرَش ودُور الصناعة لتغطية المبادلات التجارية عبر الأبيض المتوسط.

أما السواحل الشرقية فكان بها ملاّحون ذوو خـبرة تواجدوا فقطنـوا الشاطئ منذ عهد محمّد الأول.

وعَرَف القرن الرّابع / العاشر الميلادي، فعاليةَ هذه التدابير لصالح البحرية. ففي 331هـ/43ه-942م قام محمّد بن رُوماحس [129] (أبو الأميرال عبد الرحمن) بضرب كاتلونيا ومقاطعة بروفانس(Provence) حيث نال ما أراد.

ولازال المجوس خطرا على سواحل الأندلس. ففي سنة 355ه/966م شاع نبأُ قدوم الغزاة من جديد في 28 مركبا. أمر الحكَم الثاني(663هـ-679هـ) ابنَ رُماحس بالتصدّي للعدو فغادرت أساطيل اشبيلية ولاحقت العدو وهم في مياه شلب وفكّت من أيديهم الأسرى المسلمين ثمّ أمره الخليفة بمراقبه التحركات على العدوة الجنوبية للمضيق [130].

---

127 - زادت أهمية المرية عندما تفقدها الحكم الثاني (353-964م) لمعاينة البناءات الدفاعية والتجهيزات وتفتيش الأسطول البحري وقد وصل عدد وحداته 300.

128 - أسّسها البحريون سنة 271/884م. وهم من المولّدين والنصّارى الإسبان.

كانوا يتعاملون مع تَنس ثم استقرّوا ببجانة قرب المرية في مكانٍ ممتاز يُشرفُ- داخلَ الخليج - على مصبّ نهر صغير وادي بجانة Rio de Andarax وجعلوا من هذه النقطة، بفضل إقدامهم وشجاعتهم، المرسى الأكثر نشاطاً في الأندلس.

راجع مادة pechina دائرة المعارف الإسلامية ج 5، 1114م-1118م

129 - اشتهرت أيامَ الخلافة - أسرة بنى رماحس الذين بلغوا في البحر شأوا وجاها وجاهدوا في المجوس أبهر الجهاد حتى رجحت كفة نفوذهم ثم استقروا ببجانة يوم تحولت إلى قاعدة سياسية فأصبحوا دولة داخل الدولة. وبهم علت رتبة الأميرال حتىَ صار أكبر شخصية بدون منازع.

130 - ورغم هذه الخدمات التي قدّمها الأميرال فقد قُتل مسموماً بأمر الخليفة المنصور سنة 369/980م. Lévy- Provençal, Histoire de l Espagne musulmane, II, 170، 171، 191، 198، 232، 262.

كما كُلِفَ ابن فُطيس القادسي بإعداد البحرية الرّاسية بالوادى الكبير وبإنشاء سفن على منوال سفن العدو ليسهلَ الظفرُ بها وافشال مخطط الغزاة.

انشغل عبد الرحمن بحماية اشبيلية بسبب تغلب المجـوس عليها وقد دخلوها في الغارة الأولى حتى ترك الأهالي منازلهم ولجأوا إلى الجبال. فاتخذ تدابير صارمة منها بناء سور دفاعي حول اشبيلية قلل من غطـرسة العـدو. فما إن وصل العـدو إلى ضواحي لشبونة أثناء الغارة الثالثة في عهد الحكم الثاني، حتى تأهب المسلمـون إلى مقاتلته.

الصّراع الفاطمي الأموي:

لقد واجه بنو أمية خـطرين كبيرين: غـارات المجـوس المتكررة والاصـطدام مع العبيديين.

كانت الخلافة بقرطبة في تنـافس شديد مع الفاطميـين عندما ظهرت الأزمـة بين المذهبين السّني والشيعي.

أمّا المنافسة في الميدان فكانت على المضيق. فمن بين التدابير التي اتخـذها عبد الرحمن الثالث: إرسال القطع البحرية الخفيفة السّريعة إلى المضيق لمراقبة تدخلات الفاطميين ومنع وصول المدد للثائر ابن حفصون "وقد أرعب الخلافة مـدة في شرق الجزيرة بعد أن اعترف بخلافة الفاطميين في المغرب".

ورغم الاحتياطات كان الخـليفة [131] يخـشى قوة الفاطميـين وما وصلت إليـه من استعداد وروحٍ قتالية فعزّز البجرية بدون هوادة.

أخذ الأمـويّون المبادرة واستولوا على مليلة وسبتة في 314هـ/927. فأصيبت المنشآت الفاطمية المتواجدة على سواحل المغرب ردّاً على ضرب المرية وتخريبها. فكثرت الإصطدامات وتوترت العلاقات.

وذكر بن خلدون هذا النزاع العنيف فقال: " كانت أساطيل إفريقيا والأندلس في دولة العبيديين والأمويين تتعاقب إلى بلادهما في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب" [132]

---

131 - منها تحصين طنجة والإستيلاء على الجزيرة الخضراء.

132 - المقدمة: قيادة الأسطول ص 268 وعندما اشتدت الأزمة بين الدولتين في منتصف القرن 10م بعث عبد الرحمن الأموي مركبا للإسكندرية يتوقع الحرب بين المتخاصمين.

وممّا يذكر في هذا التوتر الذي أفاد الأعداء وأضعفَ المسلمين أن الخليفة الأموي واصل الزّحف حتى بلغت سفنه مرسى الخرز (القالة) وعاثت في نواحيها بعُنْفٍ وكانت وضعية بني أمية صعبة عندما وصل أعداؤهم سواحل الأندلس الشرقية.[133]

وكانت النتائج أن قضى هذا الصراع على قوى الدولتين وتراجع شأن البحريتين وانتفع أعداء المسلمين فزادوا تحرشا في القرن 6 هـ وخاصة عندما انتقل العبيـديون إلى مصر.

قال ابن خلدون: "حتى إذا أدرك الدولة العبيدية (بمصر) الأموية.(بالأندلس) الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وغيرها فملكوها وألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغيرها...

بادر بنو أمية بإعطاء الواجهة الشرقية المهددة فحظيت دانية والمرية ومالقة بالانجازات دفاعية.

وفي تلك المدّة أدخلت تنظيمات هامة على قيادة السفن وطاقمها. فالقائد الأعلى هو قائد الأسطول (وكان إذ ذاك عبد الرّحمن بن رماحس) ويأتي بعده الرايس أو الرّيّان ثمّ البحريون أو النواتية ثم النفّاطون ثمّ المتطوّعون.

وبلغت قوة قائد البحر في المرية شأنا كبيراً حتى أصبح يقاسم الخليفة السّلطة: فللأول البر وللثاني البحر.[134]

أمّا عن قيادة الأسطول (سفائن البحر) فيقول صاحب المقدمة: هي من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وإفريقية ومرؤوسة لصاحب السيف وتحت حكـمه في كثير من الأحوال ويسمى صاحبها في عرفهم البلمند بتضخيم اللام منقولا من لغة الإفرنجية فإنه اسمها في اصطلاح لغتهم وإنما اختصت هذه بملك إفريقية والمغرب لأنهما جميعا في ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب".

ودلت كثافة النشاط على التجديد والإتقان فتحولت البحرية إلى سِلاح مُدَمِر أكسب البلادَ المهابة وزرع الرّعب في قلب الأعداء.

---

133 - كان الفاطميون يراقبون صقليّة وعددا من مراسي المغرب زيادة على المهدية.

134 - كان الرنداحي أبو العباس قادراً على تجنيد رجال دار الصناعة ليفرض تعيينَ من شاءَ. وكان رؤساء السّفن سنة 303هـ/951 م في رسالة إلى الخليفة طالبوا استقالة والي المرية المسعود بن علي مما يدل على وحدة صفهم ونفوذ كلمتهم.

وبجانب المرية برز عدد من المراسى تأوي السّفن الحربية ودور الصناعة مثل قصر أبي دانس وشلب ومالقة ودانية وطرطوش.[135]

فكان للمجهود ثمارَه فنمت بلاد الأندلس وازدهرت وقوي الجيش وتعزّز الاقتصاد في هذا العصر الذهبي.

وساد الأمن في المتسع حتى ارتفع عدد المسلمين الذين فضلّوا طريق البحر لأداء فريضة الحجّ ولم يُعد هذا السّائل يخيف راكبيه أو يرعبهم عدو فيه.

وعبر ابن خلدون على تفوق المسلمين آنذاك قائلا: لمّا استقرّ الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أممُ العجم خولاً لهم وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً وتكرّرت ممارستهم للبحر وثقافته انشأوا السّفنَ فيه وشحنوا الأساطيل بالرجال والسّلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمَم الكفر واختصّوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كـان أقـرب لهذا البحر وَعلى حافته مثل الشام وإفريقية والأندلس.[136]

المنصور بن أبي عامر 366هـ-399هـ / 976م-1009م

في عهد هشام الثاني المؤيد بن الحكم المنتصر (366هـ/993م -976هـ-1109م) استولى على السلطة في قرطبة حاجبُه صاحب الدولة محمد المنصور بن أبي عامـر ثمّ خلفه ابنه المظفر.

قال عبد الواحد المراكشي في شأنه: كان قوي النفس وساعدته المقادير وأمدته صبح أم هشام بالأموال فاستمال العساكر إليه وجرت أحوال علت قدمه فيها حتى صار صاحـب الـتدبير والمتـغـلب عـلـى الأمـور... فـأقـام الـهـيـبـة فـدانت لـه أقـطـار الأندلس كلها"[137]

واعتنى المنصور بالمسائل العسكرية وكان وزيرَ هشام لشؤون البحر فأحْدث أسطولاً رفيع المستوى عدداً وعُدّة وأجمع النّاسُ على خصاله الحربيّة والتنظيمية وعلى استعداده الدائم للغزو. وأضاف عبد الواحد المراكشي. "ولم يزل محمّد بن أبي عامر طولَ أيّام مملكته مواصلاً لغزو الرّوم مفرطاً في ذلك لا يُشغله عنه شيءٌ وبـلـغ

---

135 - طرطوش مدينة على سفح جبل اختيرت لصناعة السّفن الكبرى من خشب جبالها وأشهرُها خشبُ الصّنوبر الذي قيل إنهُ لا نظير له في الطول والعرض ومنه تتخذ الصّواري ولا يفعل فيه السّوس ما يفعلهُ بغيره.

136 - المقدمة: قيادة الأسطول ص 260-267.

137 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 30.

طرطوش: لوحة تذكارية احتفاء بتأسيس
عبد الرحمن الثالث لورشته بناء السفن سنة 333هـ / 45-944م
(Lévi Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne n°86)

في إفراطه حبّ الغزو أنّه ربّما خرج للمصَلّى يوم العيد فحدثت له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلّى كما هو من فوره إلى الجهاد فتَتبَعُه عساكُره غزا في أيّام مملكته نيفاً وخمسين غزوةً (981م-1002) ذكرهـــا أبو مـــروان بن حيّان في كتابه المآثر العامريةُ وفتح فتوحا كثيرةً ووصل إلى معاقل كانت قد امتنعتْ على من كان قبله وملأ الأندلس مغانم وسبيا" 138

وإذا ذُكر المنصور ذكر صاحب الفتوحات المُدَوّنة والاستيلاء المشهور.

138 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص.38.
يقول ابن الخطيب :" واصل رحمه الله الغزو بنفسه فيما يناهز سبعين غزوة وفتح فيها البلاد وحصد شوكة الكفر وأذل الطواغيت... وفي أيامه بلغت الأندلس نهاية الكمال." انظر ترجمته بالتفصيل في الحلة السّيراء لابن الأبّار القضاعي. ص 282-286.

قال عُمر بن دّراج الذي عُرف بشاعر العصر الكبير يصف سفنَ العامري:

تحتمل منه البحرُ بحراً من القنا يـروع بهـا أمواجـه ويَهـول

بكل ممالات الشـراع كـأنها وقد حملت أسْد الحقائق غِـيلُ

اذا سابقت شأو الرياح تخيلت خيولا مدى فرسانهـن خيـولَ

سحائب تزجيها الرياح فإن وفت أطافت بأجياد النعـام فيـول

ظباء سمام مالهن مفـاحـص وزرق حمـام مـالهن هـديل [139]

سواحل في أوطانهن كأن سـما بها الموج حيث الراسيات نَزول

كما رفع الآل الهـوادج بالضحى غداة استقلت بالخليط حـمول

أراقم تحوي نـاقعَ السّم مـالها بما حملت دون الغـداة مقيـل [140]

وتوفي المنصور في وقعة بقنالش Canalés في ربيع 1002م بأقصى ثغور المسلمين فصحت له الشهادة.

مجاهد العامري 436هـ-1044م

بعد المنصور برزت شخصية لا تقل سلطة ونفوذا هو مجاهد العامري. الذي تربى في أحضان المنصور الحاجب ودخل في خدمة العامريين.

أشادت التواريخ المعاصرة واللاحقة بخصال الرجل وعبقريته وأكثرهم ثناء معاصره أبو مروان بن حيان ونقل عنه ابن بسام صاحب الذخيرة فقال:"كان مجاهد فتى أمراء ذهره وأديب ملوك عصره وأجـمع النـاس على أن مجـاهد العـامري (أبو الجيش) زعيم قوي النفس كان بحارا مجـريا ذا الوقـائع الشهـيرة وكان يـرى أن مملكته الساحـلية وأمـلاكـه البحـرية تقتـضي أن يكون اعتمادها في القـتال على الأساطـيل (وقد عرفه dozy بـ mogetus بموجيتوس.

- المشروع الضخم:

الاستعدادات الحربية: لم يـفكـر أحـد مـن مـلوك الطـوائف في احتلال جزيرة ساردينية.

مع أنّها كانت موضوع اهتمام المسلمين منذ فتح الأندلس ومن أجل هذا الهدف أقدم مجاهد على تجديد دار الصناعة القديمة التي كانت بالمرية فتضاعفت طاقتها وأمدّته بالسفن المقاتلة والنقالة من شتى الأنواع. وغدت دانية في زمانه وزمان ابنه علي أعظم مركز لأساطيل الأندلس.

---

139 - يقال هدل الحمام اذا صوت - وأخبث الحيات ما كان فيها سواد وبياض.

140 - توفي بأقصى الثغور سنة 393. ودامت إمارته 27 سنة وخلفه ابنه المظفر.

وتضاعفت طاقتها يومئذ وزودته بالمعدّات الحربية من كل حجم واختصاص.[141]
وكانت السفن قبل ذلك ترابط في مياه دانيا والجزر الشرقية التي هي من أهم أعمال المجاهد وبها أكبر المرافئ لأنّ مياه دانية لا تصلح لإرساء كبريات السفن

- فشل المسعى:

وحاول مجاهد مرارا فتح الجزيرة -بدون جدوى- إلى أن كانت غارته في 1015م-1016م. وبعد أن أحكمت التحضيرات أقلع الأسطول من دانية والجزر الشرقية في ربيع 406 هـ أغسطس 1015م وبلغ عدد السفن 120 وعدد المجاهدين ألفا. ودام السير 08 أيام ثم أرست السفن بكالياري. ورغم مقاومة الأهالي استطاع مجاهد النزول واحتلال جزء من الجزيرة ثم قرر البقاء بالمكان وانتقل بأهله ومكث 10 أشهر[142] وكان يرافقه القائد أبو حروب.

وكانت ردود الفعل من قبل البلدان المسيحية عنيفة فسارعت البابوية والدويلات الإيطالية - وفي طليعتها جنوة وبيزا - وقد جندوا مرتزقة انضم إليهم نصارى كانوا على متن سفن مجاهد كأسرى فتمردوا طمعا في تحريرهم.

وصمد مجاهد وقتا تكبد فيه رجاله ويلات والجوع ومرارة الحرمان وخطر الوباء كل هذا بسبب الحصار إلى أن هاجت زوبعة بحرية هوجاء كسرّت الشواني وأتلفت العتاد والذخائر وقتل من المسلمين خلق كثير[143]. ولم ينج من المراكب سوى أربعة ووقعت في أيدي العدوّ أم مجاهد وابنه علي.[144]

وعندما تداعت على مجاهد ملوك الأرض الكبيرة (أوروبـا) وبلـغه من أمـرهم ما لا يطاق عزم على الرحيل والعودة إلى دانية وميورقة وقد قطع العدو به السبل.[145]

141 - كانت السفن إذا لم تخرج للعمليات ترسي بين الساحل وأرخبيل الباليار وفي 22 جوان من كل سنة تقوم الوحدات باستعراض بهيج يحتوى على مهرجانات سباق بين المراكب تسر المشاهدين ويتباهى بها أصحابها ويطلق على هذا الحفل مهرجان العنصرة (أما في الشرق فيقع هذا المهرجان في شهر سبتمبر). أما النزهة على النهر الأعظم (الوادي الكبير) فكانت على متن مركب تسمى الز.

142 - لسان الدين ابن الخطيب - أعمال الأعلام ط 1951 ص 219.

143 - يسمى المكان منذ ذلك الحين "جزيرة الشهداء".

144 - لقد قيل إن مجاهد إرتكب خطأ رغم نصيحة قائده البحري عندما بحث على مأوى أمين يحتمي به من اضطراب البحر وكان مجاهد قد لجأ إلى ميناء ضيق جدا فحدث ما حدثله.

145 - من الغريب أن المصادر الإسلامية أهملت جانبا هاما مشرقا ومشرقا من حياة هذا القائد المحنك بينما أولت أهمية كبرى للجانب الأدبي من أعماله.
أنظر كتاب أبي مروان ابن حيان وابن بسّام صاحب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

لقد فشل مشروع الفتح ولكن بقيت هذه الغزوة من أعظم أعمال المجاهد. وتوفي هذا القائد سنة 436هـ/1044م بعد حكم دام 30 سنة.

انهزم مجاهد لأن مشروعه كان أكبر من مقدرة أمير من أمراء الطوائف ولأن تفوق الجمهوريات الإيطالية البحري حال دون انتصاره. ولم تثن عزائم مجاهد هذه الكبوة فراح يهاجم السواحل الإيطالية والفرنسية وكان فشل المغامرة موت الحلم الكبير.[146]

وبقي الرجل شخصية خيالية بثت الروّع والفزع في ثغور الأعداء.

وَحَذَت حذو المرية دول "أخرى بقصّر دانس (جنوب البرتغال) وشقّت سُفن ابن دماحس البحر ونشطت الملاحه" بين المرية[147] والإسكندرية.

وعبّر ابن خلدون عن هذه الصّحوة وهذا المجهود قائلا: "إن أساطيل إفريقية والأندلس في القرن الرابع بلغت منزلة كبيرة ومرفاها للحطّ والإقلاع بجاية والمرية.[148]

"الطوائف" الساحلية:

عندما زادت الأوضاع السياسية تأزّما وسوءا سارع كل من أمراء الشواطئ إلى كسب السفن القتالية قبيل عهد المرابطين وفي عهد الموحدين وكان مجاهد العامري سباقا إلى بناءها.

ومن بين هؤلاء[149] الذين فطنوا لدور الأسطول في مقاومة هجمة النصارى المعتصم بالله أبو يحي محمد بن معن بن صمادح الذي كان يملك مجموعة من السفن الحربية "رغم انكماش ولايته وقلة جبايته واشتغل بترميم أساطيله ولم يزد على مراعاة جواريه وفلكه".[150]

---

146 - امدينة محدثة أمر ببناءها الناصر لدين الله بن عبد الرحمن بن محمّد سنة 344هـ. وكانت مقصد سُفن الشام والمغرب.

147 - المقدمة ص 9-253.

148 - زالت دولة قرطبة في 1030/420 وخلفتها دويلات عديدة متفرّقة الكلمة متنافسة السياسة ضعيفة الإمكانيات معدومة الإرادة نتيجة التفكّك.

واقتسمت إمارات بطليوس واشبيلية والمرية ودانية وبلنسية ما تركه بنو أمية من السفن والعتاد والتجهيز.

149 - زالت دولة قرطبة في 1030/420 وخلفتها دويلات عديدة متفرّقة الكلمة متنافسة السياسة ضعيفة الإمكانيات معدومة الإرادة نتيجة التفكّك.

واقتسمت إمارات بطليوس واشبيلية والمرية ودانية وبلنسية ما تركه بنو أمية من السفن والعتاد والتجهيز.

150 - الفتح بن خاقان، قلائد العقيان ص47. وبفضل البحرية لعب بنو مجاهد أصحاب دانية دوراً يتمثل في حملاتهم على كرسكا وساردينيا. كما كان دور أصحاب مالقة في مراقبة المضيق (الجزيرة - سبتة - طنجة).

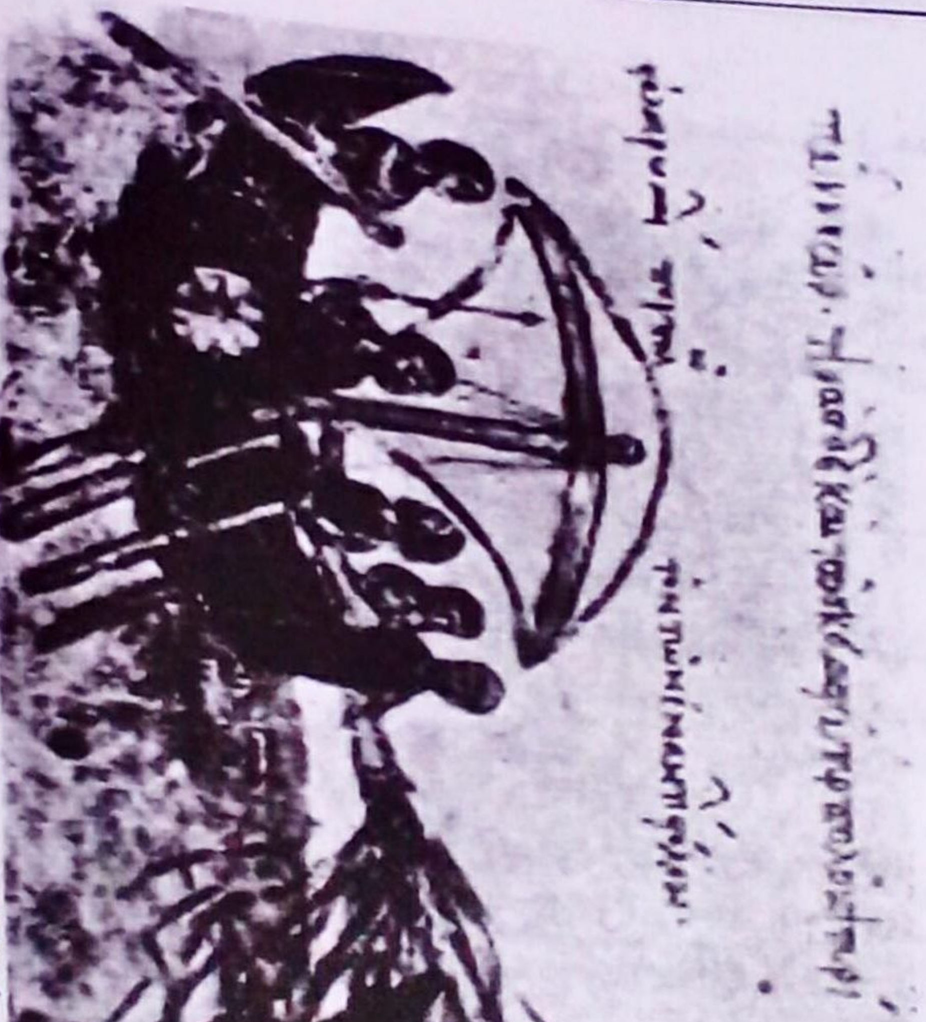

سفينة بيزنطية تستخدم النار اليونانية (نقلا عن مخطوط من القرن الرابع عشر الميلادي)

وحاكاه أصحاب دانية والجزر والحموديون أمراء مالقة وسبتة وبنو عباد أصحاب إشبيلية. وممّا يدلّ على مأساة الأندلس ملوكاً ورعية وما نزل بهم من خوف وذعْر وتشرُّد وصيةُ المعتصم بن صُمادح (محمد بن مُعن) أمير المرية (434هـ-

484هـ/1501م-1091م) لابنه معزّ الدّولة أحمد (484هـ/1901م) بأنّه متى علم بسقوطِ إشبيلية وخُلع أميرها المعتمد أنْ يعبُر البحر في أهله وأمواله إلى أمراء بني حمّاد أصحاب القلعة (المغرب الأوسط) فلمّا سقطت إشبيلية (484هـ/1091م) وأُسِرَ أميرها، بادر معز الدولة باتخاذ أهبَة الفِرار فركِب البحر في أهلِه وأمواله في ثلاث سفن أعدّها لذلك وأحْرق السّفن الباقية خشْية المطاردة واستطاع أن يُغادر المرية قبل أنْ يُطوّقها المرابطون ونزل على آل حمّاد مكرماً.

وقلّد المعتمد بن عباد صاحب أشبيليه معاصريه من ملوك الطوائف فسارع لتحسين مراكبه وتطويرها. وعندما عبر البحر قاصدا يوسف بن تشفين مستجدا طالبا الحماية للمسلمين وقد أرهقهم النصارى سافر على متن سفنه سنة 478هـ.1085م.

وبعد سُقوط طليطلة من حكم بني ذي النون (مايو 1085) على يد ألفنسو السادس وما أحدثته الكارثة من رعْب وخوف ويأس في نفوس المسلمين انقطعت بهم سُبُل النجاة. وبعد أنْ نُكِبَ المعتمد وأُجبِر على مغادرة قصره إلى أسْر بإغمات بالمغرب الأقصى (484هـ/1091م). انهارت مقاومة الأندلس.

فأنشد الشاعر أبو بكر الداني المعروف بابن اللبّانة وهو يشاهد خروج المعتمد على ظهر سفائن أعدّت له ولأهله أقلعت من الوادي الكبير إلى المحيط. يرثي سيّده ووَليَّ نعمته.

نيستُ الأ غداةَ النهر كوْنهم — في المنشآت كأموات بألحادِ
سَارت سفائنُهم والنّوح يتبعها — كأنها إبل يحدو بها الحادي
كمْ سال في الماء من دمْع وكم حملَتْ — تلك القطائع من قِطَعات أكبادي

ولم يكن الصراع بين المسلمين وأعدائهم محصوراً في الأندلس بل انتشر في البحر وامتد إلى الجزرِ. وهاهو ابن حمديس الصّقلي [151] يشارك قوْمَه في معركة فوق الماء وعمُره 17 سنة دفاعا عن مدينته بلرْمُ (Palermo) بصقلية تلك الواقعة التي أغرق فيها المسلمون سفناً معادية:

صببنا عليها ضربنا من صوارم — فغاضت بها من أسْرها القلب أنْفسُ
ونحن بنو الثغر الذين سيوفهم — ذكور بأبكار المنايا تُعرّسُ
فمن عزمنا هندية الضرب تنتضى — ومن زندنا نارية البأس تقبَسُ

151 - عبد الجبّار أبو بكر ابن محمد الأزدي الصقيلي ولد بسراقوستة في 448-1055 ولما غزا النورمان صقلية في 471-1078 التحق بتونس ثم انتقل إلى اشبيلة وعاش في بلاط المعتمد ابن عبّاد قبل نكبة هذا الأخير. وتوفي ابن حمديس في 527/1132.

أهمية البحرية عند المرابطين

لم يكن البحرُ وشؤونه من انشغالات الدولة الجديدة. فكانوا يُعَوّلون في حُرُوبهم على المشاة [152] غير أنّ الظروف وتطوّر نظرتهم جعلتهم يدْرِكون شيئاً فشيئاً أهميّة المضيق في الأحداث التاريخية كما تبيّن لهم أنّ مضيق جبل طارق منطقة استراتيجية من الأهميّة بمكان وأنّ الهيمنة عليه ضرورية وأكيدة فالمضيق يربط بين العدوتين وشواطئ المغرب المحيطية والمتوسطية تحتاج إلى سلاح بحري كثير عددا وعدة.

وكان الوضع جدّ خطيرٍ في الأندلس أيّامَ ملوك الطّوائف وقد بلغ -عددهم 23.- [153] وسرعان ما تنافسوا واختلفوا وتحالفوا مع الأعداء فساعد هجومَ النّصارى على تجزئ البلاد وانقسام العباد حتى ابتلعوا مقاطعات وضمّوا مُدُناً وجهات.

دُعي يوسف بن تاشفين لإغاثة المغلوبين على أمرهم فتردّد قبل أن يُجيب الطلب وربّما بعد ضغط الفقهاء. عبر المضيق مرّة أولى وثانية وثالثة... [154]

استعان المرابطون في البداية بسفن إشبيلية وقلّدوا بني ميمون قيادة البحرية. ثم أنشؤوا دار الصناعة بالقصر الصغير.

شعر يوسف بضرورة التسليح فكثرت الورشات في وهران والريف وسبتة وطنجة وشيدت المراسي وحصنت. وتأقلم هؤلاء الصحراويّون مع البحر فركبه يوسف بن تاشفين ونزل بالجزيرة الخضراء وحوّلها قاعدة منيعة ثمّ بدأ مهاجمة عدوّ المسلمين ألفونس السادس وألحق به هزيمة نكراء.

ودانت له ملوك الطوائف الواحد بعد الآخر وألحقوا في بداية الأمر النكاية في عدوهم وحموا الثغور.

ومن حسن حظّ المرابطين أنّهم وجدوا في بني ميمون (من دانية) الذين قادوا السياسة والعمليات البحرية وبقوا مدّة سادة البحر من أواخر عهد أمير المسلمين إلى وفاة محمد بن ميمون. [155] قال ابن خلدون في شأنهم "كان قائد الأسطول لعهد لمتونة بنو ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن.

---

153 – لم يكن للمرابطين بحرية متطوّرة في بداية أمرهم نظراً لظروف قيامهم وطبيعة حكمهم وقِصر عهدهم

154 – دام حكم هؤلاء ما بين 70 و80 سنة.

155 – عبر يوسف ابن تاشفين المضيق في 1086م-1088م-1090م-1091م-1094م-1097م-1102م.

وكل هذا ويوسف يغطي العجز في السفن بصناعة الشواني والوحدات وعندما استولى على طنجة (470هـ/1077م) أخذ ما تبقى من أسطول الحمّوديّين الذين انتزعوا الخلافة من بني أميّة وتزعموا حكومة قرطبة لمدّة قصيرة قبل أن يقطعهم سليمان المستعين بالله ثغور المغرب.

ولم يمنع قصر حكم المرابطين بعد أن شاع خبرهم في المشرق حتى استغاث بهم صلاح الدين الأيّوبي لردّ هجومات الصليبيين الطامعين في شواطئ الشام.

وذكر ابن عذاري أنّ يوسف أرسل اسطولا لنجدة بيت المقدس سنة 1005م-1006م، وقد حاصره الصّلبيون غير أن زوبعة بحرية هوجاء أتلفت حوالي 70 سفينة.[156]

ومن رجال البحر في المغرب الأقصى أحمد بن عمر المعروف "برقم الإوز" في عهد علي بن تاشفين(1106م-1142م).

روى الإدريسي مشيرا إلى الوحدات المرابطية التي كانت تجوب المحيط وإلى دور ميناء أسفي... وفي حالة صحو الطقس يرى الناس الدخان يصعد من الجزيرة. فبلغ ذلك أحمد بن عمر فقرر الوصول إليها من قبل علي بن يوسف، إلا أن الوفاة أدركته.

عبد المومن بن علي مطوّر البحرية

الطريق إلى الحكم:

خرج ابن تاشفين - بعد وفاة أبيه - قاصداً تلمسان ثمّ وهران (935-5411) حيثُ حاصرها الموحّدون وكان يريد أن يتخذها مقرّاً فإنْ غلبه الموحـدون ركب البحـر إلى الأندلس آملا أن يُؤسس هناك دولة مثل ما فعل بنو أمية بعدما انتـهى أمـرهم في المشرق. وما إن انتصر عبد المومن وأطيح بالملثمين[157] حتى خلفهم الموحدون.

وبادر مؤسس الدولة الجديدة إلى تنظيم أحوال[158] البلاد خاصة الجيش واتخذ إجراءات حاسمـة في المغرب الأدنى والأنـدلس وهـدفه تخـليص الشواطـئ الإسلامـية من النرمان.[159]

---

156 - انظر في آخر الكتاب قائمة رجال البحر الأندلسيين.

157 - يقول عبد الله عنان في نكبة المرابطين "أوجب تخاذلهم وتواكلهم وميلهم إلى الدعة وإيثارهم الراحة... فقلو في أعين أهل الجزيرة".

158 - عبد المؤمن بن علي الكومي (487هـ-558هـ) حكم المغرب 21 سنة.

159 - كان روجير صاحب صقيلية قد هاجم إفريقيا بحرا بقيادة الأميرال جرجي الأنطاكي وكان من قبل على رأس أسطول إسلامي.

الصراع على سواحل المغرب الأدنى والأندلس

بدأ عبد المؤمن بتطهير الساحل التونسي 548هـ/1153م ثم المهدية [160] قاعدة بني زيري الصنهاجيين وبعد حصار شاق ومكلفٌ حرّر سوسة ثمّ سفاقس ثمّ بونة (عنّابة) 548هـ/1153م.

وكان لعبد المؤمن أمام سرعة الحوادث قد أمر أهل الثغور بإنشاء السفن والأجفان ثمّ شنّ الحملات الكبرى على نصارى الأندلس بعد أن ضايقوا المسلمين في عقر دارهم.

وقد تكررت ضغوطات ألفونسو 8 مما دفع المسلمين للاستنجاد بالخليفة فلبى الدعوة وعبر المضيق ودخل الأندلس 539هـ/1144م 1145م واستولى على قادس وعلى اشبيلية 541 وعلى المرية 547هـ/1152م.

وهناك اهتم ببناء السفن حتى أنه في سنة 1162م اتم إنشاء أسطول يحتوي على 100 مركب بأرزيو مما جعل هذا النشاط يحوّل المدينة الساحلية إلى أكبر دار الصناعة في الناحية. [161]

وعيّن عبد الله بن علي بن اسحاق.. بن جامع الوالي السابق لتلمسان، قائد البحر سنة 577هـ/3-1182م فأنشأ فرقاً من البحريين وعلى رأسهم أحمد الصّقلي [162] وابن عَطوش الكومي.

أبرز ابن خلدون دور أحمد الصقلي في تلك المعارك البحرية قائلا: "كان قائد أسطولهم (الموحدين) أحمد الصقلي أصله من صد غيار الموطنين بالجزيرة سرويكيش. أسره النصارى من سواحلهم وربي عندهم واستخلصه صاحب صقلية ثم هلك (هذا الأخير) فلحق بتونس ونزل على السيد بها من بني عبد المومن ثم نزل بمراكش فتلقاه الخليفة يوسف ابن عبد المومن وقلده أمر أسطوله فجلى في جهاد أمم النصرانية وكانت له آثار وأخبار في عهده في الكثرة والاستنجاد إلى ما لم يبلغه من قبل ولا من بعد " وكان أبو العلا الجامع (في عهد النّاصر) قائدَ البحرية يوم الهجوم

160- بقيت المهدية الهدف الرئيسي للنصارى يريدون الإستيلاء عليها. وعندما توفي يحي بن تميم 509هـ وولي بعده ابنه علي فوقعت الوحشة بينه وبين لوجار
(كان رافع بن مكي قد انشأ سفينة بقابس فمنعه علي فاستنصر رافع بلوجار فوقع الإصطدام بين أسطول علي والنصراني فامر علي بالاستعداد للقتال فقويت أنفس الناس به ومدحته الشعراء.
161 - Villot (R.), Arzew, des origines à nos jours p26
162 - المقدمة. قيادة الأسطول ص255.

على الجزر الشرقية. واستولى الصقلى على جزيرة يابسة 583هـ/1187م وكانت آخر غارة على ميورقة سنة 600هـ/1203م.

وتحوّلت البحرية بحكم الظروف السياسية إلى سلاح اكثر فعّالية من ذي قبل وخير مثال على ذلك أنّ أبا العلا الأصبغ الجوستي افتك من بنى هود- أيام المامون (1227م-1232م)- قيادة سبتة وبسط هيمنته على المضيق.

ويختلف الموحّدون على من سبقوهم في كونهم طوّروا البحرية وسلّحوها وزوّدوها بالرجال وبنوا الحصون الدفاعية وأجهزة المراقبة وفي الرسائل التي وجهها عبد المؤمن إلى الطلبة " في شأن الحرب على ابن مردنيش وعلى دور سبتة وعلى الأسلحة وأمن المراسي والسفن في البحر والمياه الإقليمية... نجد فيها آراء جديدة واستراتيجية فريدة من نوعها كم طُبقت في الكر على العدو برا وبحرا. واعتنوا بتكوين الضباط وتدريبهم على المعارك البحرية.

الصراع البرتغالي الموّحدي:

كان المحيط منطقة مجابهة بين المسلمين وأعدائهم. وبلغ الصراع ذروته أيام يوسف بن عبد المؤمن (1163م-1184م) عندما هاجم غانم ابن مردنيش لشبونة فسبى وغنِم. ومنذ ذلك الحين لعبت البحرية دورا هاما واشتد الصراع بين البرتغاليين والموحّدين.

هاجم ألفونس هوري المسلمين وهم في لشبونة فهزم هؤلاء في معركة شانترين 1175 وتوفي فيها أبو يعقوب يوسف، وفي 1179م/575هـ نشبت حرب برتغالية على شلب بين أسطول إشبلية وأسطول.Fuas Roupinh وفي نفس السنة هاجمت وحدات بقيادة عبد الله ابن اسحاق ابن الجامع لشبونة بدون جدوى وفي 1181م سُجل انتصارٌ للأميرال البرتغالي، غير أن المسلمين أعادوا الكرّة على لشبونة وفاجأهم الأميرال البرتغالي في مياه سبتة فأغرق سفن عديدة للمسلمين ومازال الصراع على أشده ففي 1181م-1182م نهض الأسطول الموحّدي بقيادة أحمد الصقلي فبدد أسطول البرتغالي. وقُتل الأميرال أثناء محاولة ثانية على سبتة وتكرّرت الإصطدامات بين البحريتين.

وفي 1191م-785هـ استولى المنصور على شلب وعلى قصر أبي دانس.

وزن البحرية المغاربية

صلاح الدين والخليفة الموحدي

عندما اشتدت هجمات الصليبيين وحاصرت المدن الساحلية وعاثت في مياهها وتفاقم الوضع حتى استحالت على المسلمين الملاحة فأمر صلاح الدين الأيوبي (1169م-1191م) بإصلاح أحوال البحرية واتخذ أكثر من محاولة لاسترجاع ما ضاع وذاك أنه حاول تجديد السفن الحربية وإنشاء ديوان الأسطول ابتداء من 1172م فاستورد الخشب والعتاد من المغرب ومن بعض الجمهوريات الإيطالية رغم معارضة الكنيسة. لكن الحكام والمحكومين لفتوا ظهرهم للبحر ولشؤونه. ولم يـأت المجهود بثمـار وقد عمت في البلاد الفـوضى وانتشر التهـاون ولم يبـدل ما كان يجري على السواحل الإسلامية من العقليات السائدة.

وأصبح الأسطول الشرقي يسبح في السلبيات التي تسببت في الانكسار والرجـوع إلى الوراء. ففي 1182م وصلت سفن العدو إلى بيروت أمام عدم عناية حكام الشام ومصر بالأساطيل. وفي 1187م نشب شغب في الإسكندرية أشعلته الغوغاء وعدم الانضباط وفي نفس السنة فوجئ الأسطول المصري بالصور(Tyr) نتيجة العجز الشامل وكانت نهاية هذا الأسطول المصري عندما استسلمت عكا 1191م وتبعها ما تبقى من السفن الإسلامية.

ولم يكن في وسع صلاح الدين إلاّ المقاومة ولم يبق له من حل سوى الاستنجاد بدول المغرب163 لما كان لها من قوة عسكرية وبشرية. يضيف ابن خـلدون " هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل". أوفد صاحب مصر سفيره الأمير_ شمس الدين بن منقذ عندما اشتد القتـال على عكا إلى المنصور بن عبد المؤمن راجيا منه المدد. فهل استجاب الخليفة للطلب. *163*

هناك روايتان: تقول الأولى إن المنصور أرسل 180 قطعة بحرية مجهزة أتم التجهيز وذاك سنة 1190م/585هـ وكان الأسطول الموحدي قد خطا خطوات وتطور عددا وعُدة تحت إشراف يوسف الذي سبقت له خدمة في سفن روجير الثاني صاحب صقلية.

163 - لم ينقطع تضامن وتآزر الأندلس والمغرب الأدنى مع المشرق وفي هذه الأمثلة ما يدل على الروح الإسلامية وأرسل علي بن مجاهد العامري صاحب دانية والمرية والذي خلف أباه مركبا إلى مصر مشحونا بالحبوب وقد اجتاح القحط البلد. وقام المرابطون أيام بني زيري أصحاب المهدية بإعانة عسكرية - حاول صلاح الدين مرارًا رد ضربات الصليبيين وأحرز أحيانًا على نجاح. ففي 1183م قضى على مجموعة من سفن رونو دي شاتيي المكونة من 5 غلييرات غير أنّ ذلك كان مبادرات لا طائل تحتها.

وتقول الثانية بل رفض المنصور الطلب لأن صلاح الدين لم يلقب في رسالته الموحدي بأمير المؤمنين لعدم اعترافه بخلافة عبد المؤمن وعاد الرسول خائبا. قال ابن خلدون " فنقم عليهم المنصور تجافيهم بخطابه بأمير المؤمنين وأسرها في نصيبه ولم يجبه حاجته". وهناك سبب آخر سياسي يتعلق بقرقوس المغامر الذي استقر بطرابلس سنة 1172م وتحالف مع بني غانية المناهضين للموحدين وكان استلم السلطة من الخليفة العباسي إلى أن هزمه أبو يعقوب المنصور قرب قابس.

هذا بقطع النظر عن المدد هل وصل أم لا فإن صلاح الدين عانى الكثير في أحياء بحرية تداعت أركانها ولم يعول كثيرا على سفنه ولا على رجالها وسبق له أن استعمل ملاحين من المغرب الإسلامي نظرا لتخصصهم ومهارتهم ومعرفتهم للبحر وانضباطهم في المعارك البحرية وفي مقاومة الغزاة وكان ذاك سنة 1172م. ورفع أجور الملاحين وسوى بين أرزاق هؤلاء وأرزاق العاملين بالجيش البري.

- مساهمة المغرب الأوسط في النشاط البحري

لقد غُلِب المسلمون في المشرق وتكبّدوا الضربات وفقدوا مدنا ومقاطعات وفرِضت عليهم الجزية بسبب ضعف أساطيلهم وتركهم شؤون البحر " بعدما كانت لهم به عناية تجاوزت الحدّ ".

ويختلف الوضع في المغرب إذ لازال الحوض الغربي من الأبيض ناشطا "موفور الإمكانيات والأساطيل تجوب البحر ثابتةَ القوة..." كما قال ابن خلدون.

ولم تكن البحرية بالمؤسسة الجديدة على بلدان المغرب. ويطلع الاهتمام بالسفن ودورها إلى حسّان بن النعمان (75هـ-85هـ.)الذي أنشأ دار الصناعة بتونس حتى أصبحت القاعدة الأولى وجلبت الآلاف من العمال المتخصصين من الإسكندرية ثمّ إلى عهد الولاة بعده حتى زمان الأغالبة [165] حيث اشتدت الحاجة إلى أسطول قوي.عندما جاء القرن 4هـ/10م نشط المسلمون وشدوا على سواعدهم ونظروا إلى البحر بجدية الشيء الذي آثار إعجاب ابن خلدون.. فقال" إن أساطيل إفريقية والأندلس في القرن 4هـ/ بلغت منزلة كبيرة إذ وصلت فيه بواخر (هكذا) الفاطميين إلى نحو مائتين وبواخر الأمويين كذلك". وبفضل بحرية المغرب اكتسب المسلمون المهابة وخشيهم الأعداء.

---

165 - بنو الأغلب (800م-909م) دولة أسّست بالمغرب الأدنى أيام بنى العبّاس وعاصمتها القيروان ومن جليل أعمالهم فتح صقلية. بدأت المبادرة بالغارات المتتابعة بقيادة الأسد بن الفرات ثمّ تمّ فتح بالرمو (827م) وتواصلت الحملات قام بها معاوية بن حديج. أمّا الفتح النهائى فكان على يد إبراهيم الثاني (875م-902م).

عرفت موانى رشقون (ميناء بني زيان أصحاب تلمسان) ووهران: والمرسى الكبير وتنَس ودلس وبجاية وجيجل حركة متزايدة وبها كان يتمّ التموين والتجهيز والتسليح والإقلاع للغزو أو لأغراض أخرى ولم تكن التقاليد البحرية ومختلف الأنشطة التجارية والحربية وليدة القرن السّادس عشر(عصر قدوم الأتـراك إلى المـغرب الأوسط) كما زعموا. لقد أكّد المؤرّخون والجغرافيون وأصحاب الرّحلات على ما كان للمدن الساحلية من أدوار في حركات الأبيض المتوسط. قال أبو عبيـد البكـري متحدّثا عن بُونة "ومن مَرْسَى بونة يخرج الشواني غازية إلى بلاد الرّوم وجزيرة سردانية وكرسقة وما أولاها..."

وأجمع المؤرّخون والرّحالون أيضا على مَزايا المرسى الكبير. فقد سمّاه البكري مرسى جبل وهران... و(هو) مرسى كبير مشتىً من كلّ ريح وأضاف الإدريسى واصفا وهران: " على ميلين منها المرْسى الكبير وبه ترسي المراكب الكبار والسّفن السّفرية وهذا المرسى يستر من كلّ ريح وليْس له مثال في مراسي حائط البحر" كان لمحمّد بن أبى عوف ومحمّد بن عبدون وجماعة منَ الأندلسِيين فضلُ تأسيس وهران سنة 292هـ/903م واثنى كلّ من المقدسى وابن حوقل على مزايا هذا المرسى... 166

وحظيت مراسى الجزائر بصالح الملاحظات عند البكـري إذ قـال في جـزائر بني مزغنّة " ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليه أهل السّفن من افريقية والأندلس وغيرهما". 167

وقال في شأنِ مرسى الخرز (القالة) " وقد صُنع بها مرفأ للسّفن منـذ مدة قريبة وفي هذه المدينة تُنشأ السّفن والمراكب البحرية التي يغزى بها إلى بلاد الرّوم وإلى هذه المدينة يقصد الغزاة من كلّ أفقٍ لإن مقطعها يقرب من جزيرة سردانية وبينهما نحو مجريْنِ "(والمجرى: المسافة التي تُقطَع بحراً في يوم واحد).

وزيادة عن تحرك المراكب وقتالها اشتهرت القالة بالمرجان يقـول الحِمْيري في الرّوض المعطـار: "أمّا مـرجان القـالة فهو أجلّ مرجان يُوجَد بسائر الشاطئ ويقصدها التجار فيستخرجون الكثير وهو ينبتُ كالشّجر في البحر" ولهذا كان الصيادون يبحثون عنه.

---

166 - قال بيرى رايس البحري التركى. "المرسى الكبير مينا طبيعي واسع ولم يكن ما هو أشهر منه" (من كتاب البحرية).ولم يختلف أصحاب الخبرة ورؤساء السّفن في مميزّات هذا المرفأ

167 - البكرى نفس المرجع ص 66.

وكانت جيجل سبّاقة هي الأخرى لتذليل البحر والانتفاع منه وأبرز الإدريسي مميزات المدينة الساحلية: قائلا "لها مرسيان، مرسى وعّر الدخول إليه صعب لايدخل إلاّ بدليل حاذق وأماّ مرساها من جهة الشمال ويُسمّى مرسى الشعراء(؟) فهو ساكن الحركة كالحوض، حسن الإرساء به " 168

واشتهر بها صناع السّفن وكان لهم في السّابق باع في الميدان فزادوا عليه مهارة في الملاحة وتحملوا هول الأمواج العاتية. وكانت المراكب التي تغادر المرسى محلّ إعجاب نظرًا لرشاقتها ومتانتها. 169

وغير بعيد عن جيجل بجاية وقد ركز القدماء كثيرا على مزايا هذه البلدة وعلى مرساها.

فكانت المواد الأولية كالخشب متوفرة بها وكذلك التقنيات العالية فأنجزت بها مراكب كثيرة.

قال الشريف الإدريسي: "ومدينة بجاية في وقتنا هذا (القرن6 هـ/12م)... عين بلاد بني حماد والسّفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برّاً وبحراً مجلوبة... وبها دار الصناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسّفن والحرابي (؟) لأنّ الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود. ويُجلب إليها من أقاليمها الزّفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيّب موجودة وممكنة وبها من الصناعات كلّ غريبة ولطيفة". واذا كان نجّم المرية قد أفل فقد سطع نجم بجاية التي أصبحت من أهمّ ثغور البحرية تقوم بأدوار شتى. 170

وقال أبو العبّاس أحمد الغبريني في هذا الشأن " وكانت بجاية بَلَدَ غزاة وكان الغزاة يدخلون على الجزُر الرومانية وغيرها ويسوقون السّبي الكثير... وكانت أجفان إسحاق بن غانية تتردد بين بجاية وميورقة".

وفي كيفية خروج البجائيين إلى الغزو البحري ذكر ابن خلدون مايلي: " وشرع في ذلك أهل بجاية فيجتمع النّفير (الجماعة القليلة) والطائفة من الغزاة ويصطنعون الأسطول ويتخيّرون له الأبطال ثمّ يركبونها (كذا) إلى سواحل الفرنجة..."

---

168 - نزهة المشتاق ص 70.

169- (les habitants de jijel avaient autrefois la reputation mérite d'etre d'excelents constructeur de navires, en meme temps que marins trés habille) La Primandie (le commerce et la navigation...) p 113 n.1

170 - عنوان الدّراية.. ط 1910 ص 23-24.

ومازالت شهرة بجاية مرموقــة إلى أنْ زارها الحسن الوزّان (الأسـد الإفريقي في أوائل القرن السّادس عشر مبيّناً عـزْم السّكان على الصّراع مع العـدو فقــال كان البـجائيون مترفين، في وسعهم تجهيز سُفن لغزو إسبانيا وسواحلها لأخذ الثأر ولمساعدة إخوانهم بالأندلس الذين طـردوا من بلادهم. [171]

ويحدّث ابن خلدون عن أيّام العزّ والسّطوة وقد تغلّب المسلمون على كثير من لجّة هذا البحر وسارت سفُنهم فيها جائية وذاهبة.

وامتدّت الملحمة زمانا كان البحرّ فيها حليفاً والبحرية سلاحاً فتّاكاً إلى أن غرق المغرب الكبير في الحروب والتدمير وإلى أن قدم الأتراك ففتحوا صفحة جديدة رفعت من شأن العدوة الجنوبية 1516م. [172]

فلم يكن الغرب المسيحي طيلة هذه القرون يخفي نواياه في احتلال سواحل المغرب الأوسط بدعوى محاربة القرصنة والظاهر هو الهيمنة على الحوض الغربي ونذكر على سبيل المثال غارة الجنويين على بجاية (1136م) غارة رتجر2 على جيجل (1143م) ومحاولته إحتلال شرشال وتنس.

غير أن عبد المومن طرد الغزاة من عنابة (1153م-1154م) كما جرب البرتغاليون حظهم فهاجموا وهران ولكن بدون جدوى. وجاء القرن 16 وشعر الإسبان أن الظروف سانحة لتطأ أقدامهم أرض المغرب (بعد أن سقطت غرناطة 1492م) احتلوا المرسى الكبير 1505م ووهران 1509م وبجـاية وبنيون الجـــزائر 1516م فانتـقل المغـيرون من سياسة الدفاع إلى ضرورة الهجوم.

---

171 - Description de l'Afrique tome2 p 360.

ويذكر أنه في النّصف الأول من القرن الرّابع عشر هيّت عمارة بقيادة صاحب البحر لمناصرة بني مرين في صراعهم مع الأسبان.

172 - أنظر أطروحة المؤلف وعنوانها

Marine et Marins d Alger (1518-1830) 3vol

كل يحلم بالمرية

هي واسطة العقد! ومرسى الأندلس وبوابة المشرق ومفتاح التجارة البحرية... وقيسارية الأندلس ودار صناعتها... مميزات تحلت بها المدينة الساحلية عن استحقاق.

1 -الموقع والتطوّر:

اجمع الجغرافيون والمؤرخون وأصحاب الرحلات على موقعها الممتاز "مدينة ساحلية تطل على المتوسط وتضرب أمواج البحر سورها "حتى قال بعضهم: "يوم يسد في وجهها البحر يدب في احشائها الانحطاط والاضمحلال. [173]

دامت فترتها الإسلامية 765 سنة سكنها في البداية عرب من اليمن سنة 93هـ-95هـ/ 713م-715م، ويعود نموها واشتهارها إلى عبد الرحمن الثالث الذي أنشأ المدينة المحدثة وعرفت منذ ذلك الحين التطور اللائق بها فتزايدت هياكلها وتجهيزاتها كالمرسى ودار صناعة السفن والحصن الدفاعي لمواجهة الخطر الخارجي. وغطىّ نشاطها البحري موانئ المغرب كله والاسكندرية والشام وبني حولها رباط وحامية ومحارس [174] وتحولت إلى قاعدة بحرية كبرى منذ أن تأسست بجانبها بجانة [175] "مرفا على 12كلم شمالا " في مكان ممتاز على نهر صغير (واد بجانة Rio de andaraxe اتسعت المدينة وكبر حجمها وتضاعف عدد سكانها في عهد خيران العامري واخيه زهير.

173- Le jour où la mer lui sera fermée, elle périclitera pour ne plus se relever h. pérés , la poésie andalouse au XI siecle p 142.

174 - العذري ترسيع الأخبار (طبعة عبد العزيز الأهواني - مدريد 1965). الشريف الإدريسي نزهة المشتاق. أبو العذري. تقويم البلدان

يقول الزهري " من عجائب المدينة القصبة الحصينة التي ليس أمنع منها ولا أحصن منهاو يخزن بها الشعير من 60 /70 سنة ولا يسوس.(كتاب الجعرافيا ص 206)

175 - أسسها البحريون سنة 271 هم من المولدين النصارى الإسبان وكانوا قبل ذلك الوقت يتعاملون مع مدينة تنس ثم استقروا بجانب المرية فكلفهم عبد الرحمن الثاني بحراسة السواحل توقعا لغارات المجوس ثم قدمت المجموعة من تنس ووهران إلى بجانة في القرن 10 م من أسرة بني أبي رمانين لبتي لَعبت أدواراً حتى القرن 14 م.

ويقول الإدريسي " ومدينة المرية كانت في أيام الملثم مدينة الإسلام وكان بها من كل الصناعات كل غريبة...

وكانت المرية إليها تقصد مراكب البحر من الإسكندرية والشام...

وقعت في قبضة ألفونى قشتالة (1147م - 8511هـ ثم حررها المسلمون 1489م.

المرية : صور القصبة

Almería : Vue actuelle de l'ancienne Mariyat Badjdjana (« Marine de Pechina »), dominée par l'Alcazaba.

ثم أصبحت من نصيب المرابطين عام 484هـ/1091م فقويت ثروتها وصارت قبلة الشعراء والأدباء وفي النصف الثاني من القرن الخامس والنصف الأوّل من القرن السادس رغم ظروف سياسية غير مواتية راجت فيها التجارة والصناعة "صناعة السفن الحربية والعتاد والذخائر والخشب " الاّ انّ هذا الاشعاع كان من المغريات التي شجعت اطماع النصارى.

الحصار الأوّل: عرفت المرية حصارا قاسيا قاده الفونس السابع ملك قشتالة سنة 529هـ/1147م منتهزا الاضطرابات العامة التي اجتاحت الأندلس بعد انهيار المرابطين.

أعد هذا الملك قوات بحرية وبرية. شارك فيها ملوك أوروبا والمدن الايطالية ودام الحصار 3 أشهر ذاق المسلمون منه الأمرين وتبين دور البحرية في رد المعتدين. وحررت المرية بعد التضحيات.

وتصدّى للحصار القائد ابو مدين شعيب وكان على رأس السفن ابو الحسن الرنداحي وكان عنصرا قويا من رجالات البحر وزعيم كتلة بموجب رتبتهم واشتعل القتال وركب الطاغية أسطوله وفرق جيشه في جميع الجهات لكنه فشل في مقاومته وبقائه أمام أبي سعيد عثمان ابن عبد المؤمن والي غرناطة وكان الأسطول بقيادة عبد الله ابن سليمان اسحاق فانسحب العدو مهزوما [176] ودخل المسلمون المرية في أواخر 532 محتفلين بالفوز العظيم. غير أنّ نوائب الدهر تسلطت على المرية بسبب الصراعات الداخلية التي جعلت هذا المصر الكبير يتراجع في نهضته فضمت المرية إلى مملكة غرناطة سنة 635 هـ/1238م فبدا نجم المرية في أفول وَوجد الأعداء الوضع سانحا فأعادوا الكرة وكان خير حليف لهم تناحر المسلمين وتخاذلهم.

الحصار الثاني: في سنة 709هـ أي 1309م رجع الغزاة من جديد وضايقوها وانضم إلى جاك الثاني كل من ملك البرتغال وقشتالة وأرسى المغيرون في نحو 200 قطعة حربية وحاصروا المدينة ودولة بني مرين وما تبقى من دويلات ملوك الطوائف عاجـزون على المقاومة تلعب بهم عواصف التفريق وراحت شمس المرية تميل إلى الغروب واغتنم النصارى الوضع للضغط والمسلمين لا زالوا يتخبطون في نزاعاتهم فاختلت الموازين حتى افلت زمام البحر من أيديهم.

اقدم ملك الأرغون على حصار جديد وانضم إلى التحالف النصراني.

---

176 - بدأ حكم الموحدين 539هـ -1144م-1145م.

ورغم هذه الحالة السلبية صمدت المرية وقتاً قال القيسي في زجل (نوع من الشعر المحدث) مخلدا ملحمة المقاومة:

المريـــة أتـــاواها ما يحصى له مثـــال
طمعوا في أخـذها بخيـــول مدرعـــين
لقتـــال أهـــلها ورجـــال مسلحـــين
هم بـــه مسمـــين أهل قشتالة كـــذلك
لدهمور الداهريـــن اجمعوا على الهلاك
تريد أن تسمع خبرا قطعوا في السكـــاك
لما رأيت في البحـــر للجزيرة قاصـــدين
بالقطائع قد عمـــر نزلوا حقـــا يقيـــن
قلت ربي أنت معين الله أورا مـــعـــجـــزا
عصبة الموحديـــن على يد هـــود الغـــز
اقلبوا أهل بـرتغـــال قاتلوا منهم أجـــزاء
بين ركبان ورجـــال من جموع الكافريـــن
واقهروهم محصرين

اعتنى المؤرخون بصفة خاصة بهذا الحدث فبحثوا عن الوثائق وتصفحوا المصادر وترجموا البعض إلى العربية ومن بينها:

-Allouche (I-S) relation du siège d'Alméria –
en 709/1309-1310 D'après Héspéris XVI (1933) pp 122 - 138.
- Basset, Le siège de Alméria en 709, journal asiatique, 10e série x (1907) pp 275sqq.
- Bloch vila (J) Almeryy, E.I (2), 560-562
- Lévi-Provençal(E) un zagàl hispanique sur l'expédition aragonaise de 1309 contre Alméria, Revue " al Andalus", IV(1941) pp 377-399

- أبو العباس أحمد بن القاضي: درة الحجال في غرة أسماء الرجال.
- محمد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية بيروت 1969.
- ابن الخاتمة: المرية في القرن 14 نشره .G.S Colin.
- ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار.

- *عبد الملك بن أبي سعيد بن أبي حمامة*

من رجال القرن 4 هـ/10م - وهو من بجانة- وكان واليا على المرية ثم كلّفه الخليفة عبد الرحمن الثالث بإصلاح السفن وإنشاء أخرى لكثرة الحاجة وانجز المهمة بفضل رجال المرية. وبعد ذلك عُيّن قائدا على بحرية سبتة 933م-935م.

- *بنو رُماحِس* 179

من أسرة رجال البحر المشهورين - برزت يوم عرفت البحرية مكانة مرموقة وعَرف أصحابها نفوذا قلما حدث لغيرهم إلا أن قبضوا على زمام الحكم في الدولة. حتى قال الناس للأمير البرُّ وللأميرال البحرُ!

منهم محمد بن رُماحس "قائد البحر" نشط في عهد الأمير الحكم وكُلّف بمحاربة المجوس الذين أرسو بمياه شلب.

وفي عهد عبد الرحمن الثالث، غزا كاتالونيا وسواحل بروفنس (331هـ/942م-943م) كما تصدّى للمؤسسات الفاطمية بسواحل المغرب.

- *عبد الرحمن(بن محمد)*

عاش في زمن الحكم الثاني وهشام الثاني. وفي عهده أدخلت تنظيمات هامة على البحرية حيث يأتي - بعد القائد- الترتيب التالي: الرايس(مشرف على تحريك السفينة وعلى تدبير جريتها بالريح أو المجاذف) الربّان والبحريون والنواتية والنفّاطون وفي الأخير المتطوّعون.

قُتل عبد الرحمن سنة 369هـ-980م بأمرٍ من الحاجب المنصور بن أبي عامر غيرةً من توسّع نفوذه ووزن شخصيته.

- *ابن تفرتاش*

قاد أسطول المرابطين- أيام علي بن تاشفين لإنقاذ مايورقة في قوة هائلة (500 سفينة) وقد حاصرتها مجموعة من بيزا (Pise) وحلفائهم واستطاع فكّ الحصار وطرد الغزاة ودخل المرابطون ميورقة في أواخر 1116م وشرعوا في تعميرها...

- *مجاهد العامري*

سبقت أخباره وأخبار ابنه علي.

---

179 - كانت الأسرة على راس مراكب بجانة لمدة أربعين سنة.

- بنو ميمون

اصلهم من دانية. عندما انهارت دولة بني أمية قاد أفراد هته الأسرة سياسة المرابطين البحرية إذ وجد فيهم الحكّام الجُدد الكفاءة [180] والنفوذ ومنهم:

- *محمد (أبو عبد الله)*

كان على رأس الأسطول وقد غزا أرمينية الكبرى. صرّح لسكان المرية الذين عرضوا عليه أن يتولى الحكم بعد عجز المرابطين [181] قائلا "ما أنا إلاّ واحد منكم، مهنتي ركوب البحر وعليه انبَنتْ شهرتي فأنا بجانبكم على كلّ عدوّ يأتيكم من البحر".

- *علي بن عيسى*

أشهر الاخوة الثلاثة ورث عن أبيه وعمّه لبّ قيادة البحر في المحيط وقاعدته إشبيلية. كلّفه بمهمّة يوسف بن تاشفين (1100م-1142م) عندما تلقى من يحي بن تميم الزيري طلب المساعدة لرد عدوان رُوجر صاحب صقلية.

هو الذي هدّم منارة قادس حين ثارت طمعا بأن ذاك التمثال من ذهب، ثم انظم إلى الموّحدين بعدما قاد اسطول المرابطين فسهل الاستيلاء على سبتة بفضل ما كان يملكه من سفن حربية.

- *لبّ بن ميمون*

غزا مدينة الغرفور(أرمينية).

- *عبد الله*

هو آخر السلالة. قاد الأسطول للاستيلاء على ما يورقه في أوائل القرن13. في عهد مُبشر بن سليمان (ناصر الدولة) حاصر الصلبيون مايورقة حتى ضاق الحال بالمسلمين. فاخترق عبد الله هذا الحصار وخرج في سفينة تحت جناح الظلام وعبر البحر اتجاه المغرب أيام علي بن تاشفين مستنجدا.

وعندها جمع المرابطون حوالي 500 سفـينة أقلعت نحـو الجزيرة بقـيادة ابن تافرتاش ورفع العدو الحصار "مثقلا بالسّبي والغنائم" وذلك سنة 501هـ/1116م.

---

180 - كانوا في البداية- في خدمة بني أمية ثم المرابطين ثم الموحدين- الذين حكموا الأندلس ابتداء من 539/1144-1145. أنظر :

Guichard (P) ; Recherche onomastique à propos de Bani maymun de denia, cahier f'onomastique arabe, (1985 - 1987)

181 - اغتنم بنو ميمون مناصبهم في قيادة البحر وأسّسوا إمارة بقاديس.

مشاهير رجالات البحر

تميّز المغرب الإسلامي بالبحرية وبتفوّقها وبها هيمن- مدة طويلة- على الأبيض المتوسط.

لقد جرت مهامها بالنسبة للأندلس على الواجهتين: الشرقية والمحيطية.

انطلق من الأولى جليل الأحداث وتحقيق الأهداف كفتح صقلية واقـرطيش وعلى دورُ بجـانـة والمريـة وعـاشت الواجهة الصرّاع الفاطمي الأموي والموّحدي البرتغالي كما كان لهـذا الساحـل نشاط اقتصـادي بين العدوّين وبين شـبه الجزيرة والمشرق.

وعاشت الواجهة الغربية أحداثا خطيرة كهجوم المجوس مراراً على الأندلس وهجوم الصليبين.

ولم يكن الصّمود ممكنا ولا حراسة المياه المحيطة والمجاورة ولا مراقبة الملاحة بالشيء السهل.. لو لم يبادر الأمراء والخلفاء بإنشاء بحرية مجهزة ومسلحة بقيادة رجالٍ ملكوا الخبرة ورُزقوا روح الإقدام وإرادة الانتصار...

فهؤلاء المشاهير- أو الأميرالات ينتمون إلى أسرٍ توارث أفرادها القيادة والسيادة وبهم علت كلمة البحرية والبحرين- سنوات عديدة.

- **الخشاخشة:**

- منهم *خشخاش البحري* [177]

حارب المجوس بأسطول اشبـيلية (رفقة بـن كشوح) يوم أغـار المعتـدون على السّواحل وألحقوا بها أضراراً وكانت الغارة الأولى سنة 299هـ/844م ثم تلتها أخرى في 861م وانتصر فيها خشخاش، ثم استقر بالمريـة ونشط الغزو البحـري زمانـاً إلى أن توفي سنة 861م وهويقاتل المجوس...

- *الزُّعيْني (عبد المجيد المغيث)*

كلّفه محمد الأول(258-688) بقيادة السفن المتوجهة إلى المحيط لمطاردة العدو غير أن الظروف كانت غير مواتية فلم يكتب له النجاح [178] لأن الأسطول كان راسيا قرب مصبّ الوادي الكبير.

---

177 - مرت أخباره في محاربة الماجوس واكتشاف الأقيانوس.

178 - نقل جاسوس أنه من جهة المحيط أصبحت جليقية (Galice) خالية من الحراسة لعدم التحصينات وأن السكان- إذا فوجئوا بهجوم على شاطئهم عجزوا عن الدفاع-.

- *ابن مردنيش(أبو عبد الله محمد)* [182]

خلف بنو مردنين بني ميمون وانظم أولهم لأبي يعقـوب يوسف. كان يشرف على الواجهة الشرقية من الأندلس واستقر ببلنسية وبمرسية وهو من المولّدين.

وشنّ حربا على الموحدين في البداية ثم مال إليهم وواجه البرتغاليين في المحيط والمضيق. [183]

واشتد القتال بين الأميرال البرتغالي Ronpinho وابن مردنيش الذي اخترق دفاعات النصارى وحجز لهم سفينتين وغنم كثيرا في سنة 574هـ.

وكان رد فعل العدو أن عبر الوادي الكبير يقصد اشبيلية فشن غارة انتقامية على شلب 1179/575 فقام بن مردنيش بمهاجمة San Martin للقبض على Ronpinho

- *الرنداحي(أبو العبّاس)*

من أسرة القادة أباً عن جدٍ حملت راية الشهـرة البحرية - وقاعدتها قادس في القرنين 13 و14.

وبلغ نفوذ الرنداحي ذروته يوم أرسل للخليفة الموّحدي طلبا بإقالة الوالي ابن مسعود وتعيين مرشحه مغتنما مظاهرة 1247م-1248م قام بها عمّال دار الصناعة. [184] فاستجاب الخليفة لمطلبه.

- *أحمد الصقلي*

يقول ابن خلدون: " قلدّه يوسف بن عبد المؤمن، أمير الأسطول (سبقت أخباره).

- *بنو جامع*

هم من أقارب الموحدين. خلفوا بني مردنيش واحتلوا مرارا قيادة الأسطول. عيّن عبد المؤمن عبد الله بن ابي اسحاق بن ابراهيم بن جامع بعد وفاة الناصر(1213م) استعمل بنو جامع نفوذهم لأسباب سياسية. وضع هؤلاء يدهم على الأسطول وكانت القيادة مزدوجة بين البحرين المتخصصين وعلى رأسهم أحمد الصقلي.

---

182 - يُعرف عند النصارى بـ Rey Lob وابن مارتينز.

183 - في القرن 12 ظهرت قوتان بحريتان:

البرتغاليون في لشبونة والموحدون في الربّاط وسلا وأصبح المحيط منطقة صراع بينهم وميدان حرب ضاربة لا تعرف هوادة. وللمرة الأولى تلعب المعارك البحرية دورا حاسما في الصراع على مستوى المحيط.

184 - كان رجال البحر قد أسّسوا - بسبتة- مجموعة ضغط لفرض مرشحيهم للمناصب العليا للدولة منتهزين ضعف الموّحدين. وكانت دور الصناعة كثيرة منها الجزيرة الخضراء واشبلية والمرية وسبتة وطرطوش. يتبين من ذلك إهمال الواجهة الغربية لأن اهتمام الخلفاء كان دفع خطر الفاطميين.

-عمرو بن مسلمة الباجي 312هـ/933م

قاد الأسطول من المرية إلى سبتة 324هـ/936م أرسى بالقصر الكبير لشن غارات على طنجة وسبتة وعلى مليلة والناقور والمنطقة آنذاك في يد الفاطميين.

- السيّد أبو العلا ادريس بن يوسف

قائد الأسطول الموحدي وفاتح الجزر الشرقية وضارب شواطئ برشلونة وكاتالونية 607هـ/1210م.

- أحمد بن عمر(المعروف" برقم الإوز")

أعدّ غارة على جزيرة من الجـــزر الخـــالدات تسمى L'île des frères sorciers لكن حال الأجل المحتوم دون ذاك 537هـ/1143م.

وفي المشرق ذكر التـــاريخ عيـــاش بن شرحبيل الحيمـــيري قـــائد بحـــري من الشام في عهد بني أمية. قيل انه كان كان على رأس أسطول افريقية أيام فتح الأندلس. وفي اخر أيامه أقام بتونس (718م/719م).

فترة القوّة والشموخ

يعتبر العصر الذهبي للبحرية الإسلامية عهد فتوحات في الأبيض المتوسط، فرضت الهيمنة وذللت البحر وشق المسلمون عباب الهادي والأقيانوس والبحر الأحمر والخليج العربي كما تحدّوا الاخطار والصعاب لا يوقفهم حاجز ولا يردهم مانع حتى أصبح تاريخهم البحري شاهدا على عزتهم وسؤددهم. وقد خصص ابن خلدون فصلا كاملا لهاته البحرية وهي في ذروة نشاطها مبرزا الحيوية والتفوّق والاقدام والروح الهجومية التي شمخ بها سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم فكسبوا الممارسة مما حرضهم على الوصول إلى أعدائهم في جزرهم وشواطئهم بعدما شحنوا سفنهم بالرجال والسلاح والمقاتلين. فتغلب المجاهدون على الأمم النصرانية فكانت لهم المقامات المعلومة في الفتح والغنائم فملكوا سائر الجزر مثل قبرص وصقلية ومالطة واقريطش وقوصرة وميورقة ومينورقة ويابسة حتى وصلوا إلى البر الكبير (جنوب أوروبا) إلى باري وتارنت وروما(846م) ثم ضربوا مرسيليا (848م) واحتلوا مقاطعة لاكامارق وشواطئ بروفانس وجنوة (934م).

ولهذا التوسع السريع اسباب عديدة:

روح الجهاد في فجر الإسلام وتحمس الحكام في بداية الملحمة فلم يقّصروا وأنفقوا بدون حساب واتخذوا الاجراءات التي أوصلتهم بعيدا. فركب على متن السفن متطوعون وبحريون ومن لهم الخبرة في البحر وكلهم يسعون إلى الفوز العظيم. حافزهم النصر بالإيمان والجرأة حتى أصبحت الأقطار المتوسّطية تتسابق ببحرية ذات فعالية.

كان التضامن والمسؤولية الجماعية أمرا حقيقيا فإذا هُدد بلد نادى حكامه إلى النجدة كما حدث في عهد المرابطين والموحدين يوم ضايقهم النصارى كنداء صلاح الدين واستنجاده ببحرية المغرب.

وزاد الشغف والطلب في المشرق إلى التسليح في القرن 12 حصل المصريون على وحدات اشتروها من الأندلس لتفوق هذا البلد في الصناعة والخبرة.

وذكر بعض المؤرخين حدثا وقع في 1016م-1017م إذ كُلّف بحريون أندلسيون في مصر بتعويم سفينة كانت قد غرقت... وكان للمسلمين شرقا وغربا الكلمة العليا والاهتمام المفرط بكل ما يتعلق بالبحر وقد تأقلم الناس مع هذا السائل إلى حدّ بعيد.

من فقه البحار

لم يبق البحر مقصورا على الشعراء والكتاب يطرقون الأغراض كما سبق ذكره. فكان للبحرية التجارية نصيبها في اهتمام الفقهاء لاتساع السائل عبر الأرض ولـدوره في حياة الناس. فكان للشريعة الإسلامية حضور جلي في البحار ولم يَفُتْ هؤلاء الفقهاء الوقوف عند ما يثيره البحر من تجارة بين البلدان ومراكب النقل وحوادث أثناء السفر كالزوابع والعطب والإتلاف والهلاك والخصومات...

لقد تطورت الحياة عبر العصور وقوي المنتوج ونما مستوى المعيشة وكثرت الحاجات فتضاعفت المبادلات التجارية حتى صعب حصرها: الحبوب (وكانت الأندلس في حاجة دائمة إلى القمح وكان يستورد من المغرب) وبجانب هته المادة الأساسية هناك المعادن والأقمشة والجلود والفخار والحيوانات وهناك السلع الثمينة كالحرير والزجاج والحلي والتوابل، كالفلفل والزعفران وهناك مواد غذائية كزيت الزيتون والعسل والفواكه المجففة (لصنع الأدوية) والتين المجفف وسكر القصب الذي يؤتى به من السوس....

غير أنّ هذه الخيرات معرضة لأخطار كثيرة مثل الزوابع البحرية والقرصنة والرطوبة وملح البحر كما أن المسافرين على متن السفن قد يصابون بشتى الأمراض والأوبئة والهلاك [185] ولهذا كله توسع أهل الشريعة في طرح المشاكل -وما أكثرها- وفي حلها حلا يراعي حقوق كل مسافر من تجار وشركاء. واقتبسنا من كتاب المعيار للونشريسي أمثلة تبين خطورة السفر بحرا وكثرة ما يطرأ رغم أن البحر كان دومًا ولم يزل أسهل الوسائل في النقل والتنقل.

- *اعتراض لصوص البحر فنهبوا الأمتعة وتركوا المركب، فهل لصاحبه كراء؟*

وسئل ابن عمران عمن اكترى مركبا لرّحال. فعرض لهم لصوص في البحر فأخذوا المتاع وتركوا المركب وكيف لو كان الروم أخذوا المتاع والمركب دون الرحّال في بعض الطريق أو وصلوا إلى البر المقصود؟ هل يرد صاحب المركب جميع الكراء أو يرد ما لو عطب؟

185 - أفتى الفقهاء في حالة من مات على متن المركب فقالوا يغسل الميت ويكفن ويصلى عليه ثم يقذف في البحر إلا إذا كان المركب قريبا من الساحل فإنه يؤجل ليدفن إن لم يخش تغيره وعلى من وجده أن يصلي عليه ويتولى دفنه.

فأجاب: إذا أخذوا المتاع دون المركب فالكراء ثابت كما لو سرق المتاع لصوص المسلمين أو غاصب ظلوم لأن المتاع لم يتلف بشيء لأجل المركب كما لو غصب المتاع في المفاوز بحيث لا يجد المكري لمن يكري أبله أو يموت الراكب في القفار أما أخذ المركب بمتاعه فيسقط بجميع الكراء لأنه في السفن على البلاغ فعطب رقبة المركب وكانهدام الدار وموت العبد. ولو بلغوا البر ولم يكن النزول حتى أدركهم العدو فأخذهم فهو كوسط البحر.

من لقيهم العدو في البحر فأخذهم بأموالهم ثم أنقذتهم بعض مراكب المسلمين.

وسئل أيضا عمن وسق مركباً من الأسكندرية وسافر مع جملة مراكب من المهدية فلقيهم العدو بجبل برقة فقاتلوهم وحكم عليهم الروم بعد موت من مات منهم وسافروا بهم إلى بلادهم فلقيهم مراكب من الصقلية فاستنقذوهم من العدو وأتوابهم لصقلية فهل لهم شيء في المركب وأهله أو ليس لهم شيء أو لهم أجرة في استفادتهم من العدو أو لا؟ وهل تقبل شهادة من بقي في المركب بعضهم لبعض؟ وهل تكون المحاكمة فيه والشهادات في المهدية أو غيرها؟ وما الحكم فيمن مات منهم ولهم ورثة حضورا وغُيَّبا وإن وجبت الأجرة كيف تقبض؟ وهل على اللوح شيء أو لا؟ وكيف الحكم فيمن وجد على رحل يعطاه بهذا أم لا؟.

فأجاب: إذا علم الغزاة لمن المركب لم يجز لهم أن يحدثوا فيه حدثا، وعليهم حفظه بما فيه من الأموال حتى يردوه بأسره إلى أهله إذا عرفوهم قبل القسمة، فإذا أصابوه وردوه على أصحابه توفر أجرهم ودخرهم ووفوا بأداء الأمانة. قال تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) والمؤمن أخو المؤمن يحفظه من كل ما يمكن حفظه إنما المؤمنون إخوة. وفي حديث ابن عمر عنه عليه الصلاة والسلام: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه"، وفي حديث: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وفي حديث أبي موسى: "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضا، وشبك بين أصابعه" وفي حديث النعمان بن بشير: "مثل المؤمنين في توادهم[186] وتعاطفهم وتراحمهم كرجل يشكو عضو من أعضائه تداعى له سائر جسده بالسّهر والحمّى". والرزية الواقعة في هذا المركب من سفك دماء المسلمين عظيم وأمر ضربهم وسلب نعيمهم في بعض سواحلهم، وقد منّ الله تعالى ببعض غزاة المسلمين في رد المركب وما فيه، فعلى الله يحتسب أجورهم فلا يزهد في ذلك الأجر

186 - في نسخة توادُهم.

وليغبط وليستحق من الله تعالى الثواب بتعجيل جميع المركب وأمتعته على أهلها أو ورثتهم، فإن في ذلك بعض السلو على المصابين ولورثتهم، وسرور كافة المسلمين، والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا.

- مركب بلغ الغاية ولم يمكنهم التفريغ حتى عطب وذهب ما فيه

وسئل يحيى بن عمر عن مركب بلغ الغاية ولم يمكنهم التفريغ حتى عطب وذهب ما فيه.

فأجاب: أنه كالوسط لا كراء لربه، ولو أمكنهم التفريغ فاشتغلوا عنه بغيره فالكراء لصاحب المركب ولو اشتغلوا بالتفريغ فأصابهم الهول في اثنائه فمن سلم متاعه أدى الكراء ومن عطب متاعه فلا شيء عليه. قيل نزلت مسألة وهي أن مركبا دخل الإسكندرية من تونس آخر النهار فأبى النهار فأبى قائد المركب الدخول حتى يدخل بالغد صاحبه هول بالليل فمنعه الكراء من الدخول حتى عطب، فأجيب بأنه إن تمالأ أهل المركب على هذا فعليهم الكراء، وإن كان يدخل خاصة فإنه يسقط عنهم الكراء ويبقى النظر في تغريمه إن حكم عليهم بالإكراه في المبيت مع العلم بأن حضرة الإسكندرية (كذا) ما هو إلا بالحيلة وبهو، مخصوص واشتهر ذلك وظهر فيها.

وسئل أبو محمد عن مركب كان بالمهدية فأصابه هول فنقر بقاعه قاع البحر فخيف عليه أن يهلك من ذلك فرمى منه التجار بعض ما فيه ليخف ولا يصل إلى قاع البحر فذهب الهول فخلص المركب، فأراد أصحاب الحمولة أن يدخلوا المركب في قيمة ما طرح منه وأبى من ذلك صاحب المركب.

فأجاب: إذا رمى من شحنه خوفا عليه أن يهلك من نقرة بقاعه فإنه يدخل في القيمة ويحسب ما عليه من قيمة ما رمى ما ينوبه من ذلك.

وسئل عن رجل دفع إلى رجل مالاً قراضاً وهو صاحب سفينة على أن يعمل في أي تجارة شاء من أي بلد شاء ويحمله في مركبه بالكراء، والربح بينهما.

فأجاب: هذا قراض فاسد باشتراط زيادة، والعامل أجير له أجرة مثله وكراء ما حمل في مركبه، والربح والخسارة لرب المال.

وسئل ابن أبي زيد وأبو سعيد ابن أخي هشام وأبو محمد ابن التبان عن قوم أشحنوا طعاما في لوح كل واحد فيه حصته، فلما أرادوا أن يقلعوا تبين لهم أنهم أشحنوا فيه فوق حمله فأنزلوا منه كيلا فقبضه واحد منهم ممن له فيه حصة، وذلك بإذن صاحب المركب ومن حضر من أصحاب الطعام، وكان بعضهم غائبا ثم أقلع المركب فعطب فأراد من كان غائبا أن يرجع على الذي قبض ذلك الكيل بما ينوبه فيه بمقدار حصته.

فأجابوا: ذلك له ويقضى له به على قابضه فيدفعوا إليه ما ينوبه كيلاً إن كان كاله واستهلكه بغير البيع، وإن كان باعه فربُّه مخير في إجازة البيع وقبض الثمن أو يأخذه بما ينوبه كيلاً في جنسه ونعته.

أوسقوا مركباً متاعاً ثم تبين لهم أنهم حملوا به ما لا يطيق واختلفوا في الإنزال

وسئل ابن يونس عن قوم أوسقوا في مركب متاعاً، فلما أقلعوا أصابهم هول وخافوا الغرق وبان لهم أنهم أوسقوه فوق حمله فأرادوا أن ينزلوا بعض وسقه في البر واختلف أصحاب المتاع في ذلك.

فأجاب: إن علم الأول في الوسق فإنه ينزل وسق الآخر فالآخر من حين أخذ المركب في الوسق كان وسق من أوسق من بعد ذلك غير جائز، وإن لم يعلموا من هو أولاً وآخراً فينزل من رحل كل واحد ما يخصه، إن أنزلوا عشر وسقه فينزل كل واحد ما يخصه إن أنزلوا عشر وسقه فينزل كل واحد عشر ما أوسق، وإن خمس فخمس، وقاله بعض أصحابنا وبالله التوفيق.

وسئل سحنون عن رجلين لهما سفينة فأراد أحدهما أن يحمل في نصيبه متاعاً له وليس لصاحبه شيء يحمله فقال الذي ليس له شيء لا أدعك تحمل فيها شيئا إلا بكراء قال الآخر أنا أحمل في حصتي.

فأجاب: له أن يحمل في نصيبه ولا يقضى عليه لشريكه بكراء فإما أن يحمل مثل ما حمل صاحبه في الشحنة والمتاع وإلا بيع المركب عليها.

من اكترى مركباً من الإسكندرية إلى طرابلس فساقتهم الريح إلى غيرها.

وسئل ابن عبدوس عن قوم اكتروا مركبا من الإسكندرية إلى طرابلس أو غيرها فزادت بهم الريح إلى سوسة، ومع المتاع ربه أو وكيله وهو من أهل طرابلس أو غيرها.

فأجاب: ذلك سواء فإن شاء أخرج متاعه لسوسة ولا كراء عليه لزيادة المسافة وإن شاء الرجوع إلى طرابلس بالمتاع خاصة أو بنفسه خاصة أو بالأمرين فذلك له لأنه من شرطه فلا ينظر إلى غلاء المتاع بسوسة ولا إلى رخصه.

- *إذا أفسد الماء البضاعة في السفينة.*

وسئل أبو سعيد ابن أخي هشام عمن اكترى على حمل متاع أو بز أو طعام في سفينة وانفلت الماء من أسفلها حتى فسد الطعام وعفن أو فسد منه ما ينقص من قيمته أو فسد حتى صار لا قيمة له،وكيف إن كان ذلك بماوهة (كذا) البحر من أعلاها أو كان ذلك بماعز صاحب السفينة إنما كانت تعمل الماء هل يضمن؟

فأجاب بأن قال: ما أفسدت من ذلك من أعلاها أو من أسفلها حتى صار لا قيمة له فإن الكراء يبطل ولا يلزم منه شيء، وإن تغير ذلك حتى نقص عن قيمته نقصاناً بيناً

فإنه ينقص من الكراء بقدر ما نقص من قيمته، ثم ينظر إلى ما ابتل من ذلك من بز أو متاع مما كان في جوف المركب أو على ظهره فإن كان من الأزواج المتراكمة من كبر البحر وأمر غالب حدث من عمل المركب للماء مما لم يكن بسبب صاحب المركب ولا من تغريره فلا ضمان عليه في شيء من ذلك ولا كراء له فيما ابتل بللاً كثيراً حتى أفسده حتى صار لا قيمة له، وأمّا إذا غر من عملها للماء فإن كان الذي بها أمرا بيِّنا لا شك فيه أنها بعمل الماء لسوء قلفطته أو غير ذلك من الوجوه التي يكون منها أعمال الماء في المراكب فما كان من ذلك الفساد فهو ضامن له وأما ناله من ذلك من رش خفيف مثل الندى التي ليست بفساد بيِّن فلا ينقص من ذلك الكراء ولا يضمنه صاحب السفينة.

- *إذا زعم رب السفينة أنه رمى متاعا لهول البحر ولا بينة له*

وسئل أيضا عن قوم اكتروا على متاع في سفينة وركبوا في أخرى فلما وصلت زعم ربها أن البحر هال عليهم فرموا المتاع ولا بينة إلا من لا يقبل قوله، وكيف إن كان طعاما؟

فأجاب: إنه مصدق في قول ابن القاسم في العروض، وفي قول أشهب لا يصدق إلا ببينة. وأما الطعام فلا يصدق فيه إلا ببينة في قوليهما.

ونزلت بقرطبة مسألة قوم أشحن عندهم السلطان طعاماً بالكراء وزعموا أن البحر هال عليهم وطرحوا الطعام وعطب المركب ببقية ما فيه فكذبهم وكيل السلطان فأقموا ببينة بالسماع الفاشي أنهم سمعوا بعطب المركب.

فأجاب فيها أبو عمر ابن المكوي إذا لم يكونوا في مستعتب فلا ضمان عليهم بما شهد لهم مع يمينهم في مقطع الحق أنهم لم ينجوا بشيء من الطعام.

وأجاب ابن العطار: إذا لم يكونوا في مستعتب فلا ضمان عليهم بما شهد لهم مع يمينهم في مقطع الحق أنهم لم ينجوا بشيء من الطعام.

وأجاب أبو محمد الأصيلي وغيره: لا ضمان عليهم إذا كانوا كما ذكرت إذا كانوا شحنوا الطعام بالكراء وطاعوا بذلك خيفة السلطان؛ فوقّع قاضي أشبيلية: إذا كان نفذ إليه عهد ابن ابي عامر في النظر إليه وهو في الزبيدي مجمد بن حسين، فسأل الزبيدي قاضي الجماعة محمد ابن يبقى ابن زرب عن مسألة بعد أن أدرج إليه مسالة وجواب الفقهاء فيها.

فأجاب: أمر الأجراء محمول على الضمان حتى يبينوا ما يوجب رفع الضمان عنهم، وشهادة السماع فيها تجوز فيه إنما تجوز إذا شهد العدول بالسماع من أهل العدول وغيرهم، وأما أهل العدل عن غير أهل وكنت أرى أن تمتحن ما زعم أهل المركب

فإن شهد عن ذلك العدول بأمر تستقين به صدق قولهم من معاينة عطب المركب بالطعام أن تسقط الضمان عنهم إن شاء الله.

وسئل أبو سعيد أيضا عن قوم اكتروا في سفينة من صقلية إلى سوسة فوقعت بتونس عليهم الريح وجاءهم من الهول ودوامه ما منعهم من الركوب، وتلك السلعة في الموضع الذي نزلوا أكثر من سوسة التي اكتروا إليها أو أقل أو فيها خسارة.

فأجاب: إن كان البلد الذي نزلوا به جاوز سوسة وناحيتها حتى صارت سوسة خلفه وتمادى إلى ما بين يديه فاستقر بالبلد الذي استقر به فإن كان جميعهم في سلعتهم بهذا البلد مثل سوسة وما قرب ذلك فعليهم كراء سوسة وإن كان أزيد زيد عليهم من الكراء بقدر انتفاعهم في ذلك، وبعض أصحابنا يقول عليهم الأقل من زيادة النفع أو كراء عليهم على سوسة، وبعض أصحابنا يقول لا كراء عليهم في الزيادة.

وإن كان بيعهم اقل من بيع سوسة بشيء كثير فلا كراء له ويفسخ الأمر بينهم. وإن ساروا إلى جهة غير تلك الجهة مثل أن يكتروا إلى سوسة فيقع ببرقة أو غيرها من المواضع المتباعدة من سوسة فلهم ايضا الكراء على قدر انتفاعهم وما زاد السفر أو أنفق مع السفر لسوسة فعلى الذي تكلم فيه أو لا وبالله التوفيق.

متى شحنوا مركبا بالكراء وساروا في البحر ثم ردتهم الريح إلى جهة البر الذي ركبوا منه

وسئل يحي بن عمر عن القوم يكترون في المركب فيشحنونه ثم يدفعون من المرسى فيتجرون ما شاء الله ثم تردهم الريح إلى المكان الذي منه راكبوا أو إلى غيره من المواضع إلا أنه في الحائط الذي ركبوا منه.

فأجاب: إن كان كراؤهم على أن يقطعوا البحر مثل الكراء إلى صقيلية من إفريقية والأندلس فيتجروا في البحر ثم رددتهم الريح إلى الحائط الذي منه ركبوا فعطب المركب أو بدا لصاحبه في الإقامة ولم يكن للركاب فيما جروا من الطريق منفعة فلا كراء لصاحب المركب.

وإن كان كراؤهم مع الريف مثل أن يكروا إلى مصر من إفريقية وأشباه ذلك فجرى المركب بعض المجرى ثم عطب فلصاحب المركب من الكراء بحسب ما جرى من المسافة وهو قول أصبغ.

- *حكم السفينة للتجارة*

سئل أحمد بن ميسر بالإسكندرية، سأله يحي بن عمر عن سفينة تقدم بلدة وفي السفينة تجارة لغيرهم، فتجار وغير تجار أصابهم هول في البحر وارتجاج عظيم فطرحوا بعض حمولة المركب، منه ما طرح للتجارة ومنه ما طرح للقنية. وما تقول إن كان حمل ما حمل للتجارة بكراء أو بغير كراء؟

فأجاب: الجواب وبالله التوفيق في كل ما سألت عنه، ما طرح على وجه التجارة من الأمتعة وكانت لتجارة أو غيرها ما كان الإكراء، ولم يكن فسبيلها واحد، وهم شركاء فيما سلم وفيما طرح على قيمة رؤوس أموالهم في الموضع الذي حملوا منه، وليس على السفينة ولا على خدام المركب وعلى النواتية ولا على الأحرار شيء، وإنما يكون على المتاع ولا نرى على العين شيئا....

- أحد الشريكين في المركب الخرب يصلحه بغير إذن شريكه

وسئل أبو محمد عن مركب بين رجلين بنصفين خرب أسفلُه حتى لا ينتفع به إلا بإصلاحه فأصلحه أحدهم (كذا) بغير إذن شريكه بطلب بنصف القيمة فأبى الآخر.

فأجاب: هو بالخيار بين أن يعطيه نصف ما أنفق والمركب بينهما أو يأخذ من شريكه نصف قيمته خربا إذا شاء شريكه. فإن أبيا فمركب بينها يكون للذي أنفق بقدر ما زادت النفقة فيه مع حصته الأولى مثل أن تكون قيمته خرابا مائة ومصلوحا مائتين فللذي أصلح ثلاثة أرباعه...

وأصدق ما يصف فترة الشموخ هذا وعزة البحرية الإسلامية ما حدّث به ابن خلدون... "السفن جائية ذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البرّ الكبير (أروبا) المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملك الإفرنج... وقد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عُدّة وعددا... فلم تظهر فيه للنصرانية ألواح..."

وعندما كثرت الإعتداءات على المراكب الإسلامية واقدم العدو على نهبها وأسر من فيها طُرحت قضية الغزو على أمم نصرانية ووضعية الأسرى لكلا الطرفين فجوّز الفقهاء الغزو البحري.

لذا تعدّدت المصنفات وتنوّعت أوجه النظر وراح الناس يتجادلون ويتحاجون. ففي هذه الظروف شبّ فقه البحار وترعرع

ووصلتنا بعض التصانيف ككتاب أبي فراس (أبي قاسم خلف) في "أكرية السفن" وأمتعنا الونشريسي بـ"المعيار المغرب والجامع المعرب" وهذا القاضي ابن سراج (456هـ-1064م) وهذا القاضي عياض (476هـ-544 هـ). [187]

187 - توفي الونشريسي سنة 914هـ -1508م وهو من فقهاء المالكية عاش بين المغرب والأندلس.
- القاضي عياض من سبتة وليّ قضاء المدينة ثم قضاء قرطبة. له كتاب في الفتاوى.
- ولم تكن البحرية الحربية أقل شأنا عند المؤلفين. واهتم رجال العصر الذهبي بفن القتال في البحر وأساليبه نذكر كتاب "الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية" مما يدل على مرتبة البحر في مجتمع ذلك الزمان.

القسم الثالث

بداية النهاية

المخطط الصليبي

بعد أن صال المسلمون وجالوا عبر البحار المعروفة آنذاك والمحيطات وحققوا ما كانوا يصبون إليه... تراجع أمرهم فتقلص نفوذهم وتضعضع بنيانهم فاستصغرهم من كان يهابهم وافترس ممالكهم وانتهك أعراضهم وهدد أمنهم فطويت صفحات الكر وأقبلت أيام الأرق والتحسر والعجز على رد أي فعل.

التسلط على شواطئ الشام:

بدأت المأساة بالمشرق وقد اغتنم الروم تردي أوضاع المسلمين الداخلية فانتهشوا شواطئ الشام ثم مصر دون أن يلقوا مقاومة حقيقية.

وهاهو ابن حوقل [188] وقد شاهد الحالة المؤسفة لما حل بهذين البلدين بينما أهلهما متفرجون لا حول لهم ولا قوة.

فمصير قنسرين [189] يغني عن بقية المدن. كانت فيما مضى "عامرة وغاصة بأهلها فاكتسحها العدو وكأنها لم تكن "رغم سورها الحجري فخربوا جامعها وسبوا ذراريها وقتلوا أهلها ثم أحرقوا المدينة".

وفصل ابن حوقل ما حدث لهاته المدينة "هي الآن مملوكة من جهتين إحداهما في قبضة الروم مجزية يؤدي كل إنسان على داره ودكانه جزية. وعليهم الآن للروم كل سنة قانون يؤدونه وضريبة تستخرج من كل دار وكانت بين المسلمين والعدو هدنة كانوا فيها مع الروم محلولة معقودة لأن أمر حلها وعقدها إلى الروم".

وكان مصير الثغور على هذا المنوال فكل ما وجد على السواحل أو قريبا منها مباح للغزاة وهكذا أقدم الروم على احتلال أنطاكيا وملكوها في (359هـ) "وأهلكوا حصونا كحصن الإسكندرية (أسكندرون) ذات البساتين والزرع والضرع وكذلك حصن التينات على شاطئ البحر فيه مقلع خشب الصنوبر الذي كان ينقل إلى الشام ومصر.

188 - أبو القاسم محمد توفي سنة (367هـ/977م) له كتاب صورة الأرض.

189 - فتحها أبو عبيدة سنة 637م.

- الشواطئ المصرية

مكن فتح مصر سنة 642م من الاستيلاء على الإسكندرية وكانت يومئذ المدينة الثانية للإمبراطورية البيزنطية والقاعدة الأساسية لأسطولهم. ثم أعادت بيزنطة الكرّة باسترجاعها سنة 645م ولكن لحين فقط ثم أخذها المسلمون من جديد وكان بها أكبر دار صناعة للسفن.

هاجم العدو دمياط [190] (853م) فأدرك حاكم مصر آنذاك - بعد فوات الأوان - ضرورة امتلاك أسطول. فأمر ببنائه في كل نقطة ساحلية تتوفر فيها الإمكانيات كما أمر بإصلاح ما انعطب وبتعويض ما أتلف ولكن بقيت مصر تعاني من ضربات العدو التي بدأت بدمياط.

حدثنا الزهري عن خلل المقاومة الذي ظهر في منارة الإسكندرية إلا أن الخيال طغى على وصفه وحلت الأسطورة محل الواقع تناسيا أن المنارة وحدها لا ترد المغيرين.

قال: " ذكر المسعودي أن هذه المنارة الثلث الأول منها مربع والثلث الثاني مدور والثلث الثالث مثمن... وكان في أعلاه مرآة عظيمة. زعم ابن الجزار أنها كانت تحرق المراكب في البحر على البعد الكبير وقال المسعودي أيضا: إن هذه المنارة لم تحرق المراكب وإنما كان يرى فيها أهل الإسكندرية المراكب التي كانت تأتيهم من بلاد الإفرنج وبلاد أرمان وجزائر البحر كجزيرة صقلية وإقريطش وكانوا يرون المراكب على مسيرة ثلاثة أيام وأكثر وكانوا يستعدون لعدوهم قبل أن يصل إليهم...

وكانت هذه المرآة من الخشب مدهون عليها بالأدهان المتقنة المحكمة... وكان قطرها ستة عشر ذراعا ودورها نحو الخمسين ذراعا... " [191]

- سواحل المغرب الأدنى:

كانت شواطئ المغرب الأدنى مغرية للروم بعد انتصاراتهم المتتالية فاغتنموا فرصة انتقال الفاطميين إلى مصر(966م) فاعتدوا عليها واستعد الزيريون للمقاومة.

ففي عهد باديس أبي مناد (683م-604م) وبمناسبة التقليد الفاطمي [192] سنة 387هـ احتفل به احتفالا كبيرا واستعرض فيه الجنود وسفن الأسطول ورمى النفاطون بالنار اليونانية مما يدل على أن روجر -لا محالة - سيواجه الزيريين (345هـ-362هـ).

---

190 - استولى ملك فرنسا لويس التاسع (سان لويس) (1226 -1270) على دمياط 1249 ثم أرجعها مقابل ثمن مفاداته عندما أسر وكان هدف لويس التاسع " تحرير فلسطين من ملك سلطان مصر.

191 - كتاب الجعرافية ص 259.

192 - التقليد ما يكتبه السلطان أو الأمير للحاكم مصرحا له بتقليده الحكم. 193 - تنسب الأبيات إلى رافع بن مكي من بني كامل - الرواسي = الجبال الراسخة.

وعندما جاء تميم بن المعز إلى الحكم (435هـ-501هـ) واستقر بالمهدية لم يكن تحت سلطته إلا ساحل البحر. من سوسة إلى قابس. فكان هجوم أسطول جنوة بـ300 قطعة وتمكن الغزاة لكثرة عددهم وعدتهم من النزول إلى البر. بجانب المهدية. وأحرقوا الغلال وسبوا السكان فصالحهم تميم على مال أخذوه.

وفي شأن هذه الغارة المفاجئة يقول الشاعر أبو الحسن علي بن الحداد ذاكرا عدد المغيرين وهجومهم المباغت وتناسي المسلمين فن القتال ومكايد العدو.

غزا حمانا العدو في عـــدد	هـــم الدَبَا كثــرة والـنـغـف
عشرون ألفا ونصفها أتلفوا	من كـــل أوب بئسما أتـــلفوا
جاؤوا على غرة إلى نفـــر	قد جهلوا في الحروب ما عـرفوا
وهم من العيش في بلهنـيـة	وليـس للدهـــر أعين طــرف
فأيقظوا من سنات غفلتهم	لهم عيــون اجفانـــها وطـــف
في سفن كالجبال ليس لهـا	إلا من السمد والطبـا شغــف
هبت رخاء ريحها فجــرت	كما اشتهت وهي عندنا غضـف
فإن ونت في الهبوب حركها	مجـــاذف كاطـــلال تلتـقـف

النغف = الدود - كل أوب= من كل ناحية - البلهانية = رغد العيش ورخاؤه.

وفي عصر يحي بن تميم (501هـ-509هـ) سمت همّة مقاومة الجنويز والترمان فأنشأ أسطولا بحريا غزا به بلاد النصارى مثل جنوة وساردانـــية حتى هـــاب العدو بطشه ثم نشبت الوحشة بينه وبين روجر صاحب صقلية فاستعدّ يحي للحرب.

قال محمد بن بشير[193]:

أعددت للأعداء كل مصمصم[194]	يسير إليهم قاصدا وهو أهـوج
كمثل الرواسي منعة غـــير	انها على تبج الدماء تسري وتدلج
كأن القنا والنبـــل في جنـــباتها	سيال بأكتاف الهضاب وعوسج
إذا نضنضت من ألسن لهبـــية	بمارج نار يستقـــل ويرعـــج
رأيت صلالا أخرجت من جهنم	تحرق أكـباد العداة وتنضـج

193 - تنسب الأبيات إلى رافع بن مكي من بني كامل.

194 - من كل طريق - مصمصم = الخيل الصابرة على السير.

وبقي التوتر بين الطرفين إلى أن توفي علي وخلفه ابنه الحسن [195] (515هـ-543هـ) كان النرمان يترقبون الفرص للانقضاض على الشواطئ التونسية فتنكروا للأمير ثم هاجموه (517هـ) وكان هجوم روجر للسواحل بقيادة الأميرال جرجي الأنطاكي الذي كان من قبل على رأس أسطول إسلامي.

فنزل العدو بجزيرة الديماس فقاتلهم جيش الحسن حتى أغرقهم إلا روجر فأعاد الكرة على المهدية لانشغال الأمير بمحاربة الأعراب فدخلوها وسكنوا قصورها وغنموا مافيها ومكثوا بالساحل سنوات 1146م-1159م إلى أن قرر عبد المؤمن بن علي تحرير سواحل المغرب الأدنى... بادئا بتونس فالمهدية ثم سوسة ثم سفاقس ثم بونة 548هـ-1153م.

سواحل الأندلس:

اشتدّ تكالب الصليبيين على تلك السواحل العامرة والآهلة بالسكان فراحوا يقتلعون من يد المسلمين تلك الأمصار وشجعهم الوضع السياسي المتردي [196] إذ كانت شمس دولة عبد المؤمن في غروب فضربت السواحل الشرقية والمحيطية والمضيق وانتهت بسواحل المغرب الأقصى والأدنى.

عانت المدن الساحلية ما عانت من الغارات والحصارات وكل أنواع المضايقات منذ القرن 15.

لقد انهزم المسلمون بعد وقعة بطرنة [197] (Patrna) قرب بلنسية سنة 455هـ/1063م وتلتها وقعة باربا سترو(Barbastros) 654هـ/1067م.

---

195 - كان الامير المرابطي بالمغرب علي بن يوسف بن تاشفين (1106م-1142م) فتدخل عليّ بإرسال الأسطول بقيادة علي بن ميمون إلى بلاد روجر فاستفتح منها حصونا وسبى سبايا (التجاني - الرحلة ص 333-335).

196 - بعض التواريخ لتتبع الانهيار:

- 420هـ /1030م زوال دولة بني أمية وبداية الفتنة الكبرى.
- 539هـ/1144م-1145م نهاية المرابطين في الأندلس.
- 627هـ-628هـ/1230م نهاية الموحدين في الأندلس.

197 - قال أبو اسحاق الطرطشي مقارن بين جيش المسلمين وجيش عدوهم (و قد احتلت طرطوش في 534هـ-1148 وكانت مدينة صناعية هامة يوم تحرش الجنويش عليها)

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا

ثم تكرر الضغط على بلنسية حتى افتكها العدو وامتلكها سنة 1238/636 فكانت الفاجعة الكبرى وخلّد هذه المأسات الشاعر ابن الأبّار وقد استغاث بالحفصي أبي زكريا 198 1229م-1248م مترجي منه التحرك قبل فوات الاوان لردع جيم الأول صاحب أرقون. 199

- **المضيق:**

من الطبيعي أن يرنو الصلبيون إلى هذا المرر الحيوي لتكمل لهم الهيمنة على الملاحة.

كان احتلال جبل طارق - ويسمونهم جبل الفتح أو البحر الزقاق- سنة 660هـ-1262م وطارفة سنة 689هـ/1291م/1292م بعد معاهدة Monteguado .

الجزيرة الخضراء: استولى عليها جاك الأول سنة 641هـ/1244م.

وتكررت محنة المدن الساحلية حتى جاء دور سبتة. وهي مفتاح المضيق وأهم نقطة اقتصادية وعسكرية وتجارية وقد اشتهرت أيضا بصيد السمك والمرجان وممّا ضاعف أهميتها أنها تقع على 16كم جنوب جبل طارق (احتلها أصحاب قرطبة 319هـ/931هـ ولقب الخليفة بملك البحريين. وعندما اشتد الصراع الفاطمي الأموي أصبحت المدينة نقطة خلاف حتى إذا زال بنو أمية خلفهم بنو حمّود. 200

- بلنسية (636هـ -1238م): جيم الأوّل ملك أرقون استولى على المدينة.
- مُرْسِيــــة (640هـ-1243م): استولى القـشتـاليون عليـها وفـرضوا حـمايـتـهم على بلنسية ومرسية.
- المرية: (لأهميتها خصصنا لها فصل في آخر الكتاب).
- مالقة (892هـ-1487): سقطت على يد القشتاليين.
- طرطوش: تحرش الجنويز على هذه المدينة الصناعية فأخذوها 543-1148.

---

198 - وكان يدعى له في الصلاة في معظم مدن الأندلس منذ 1238/640 كما كان يدعى له بطنجة وسبتة والقصر الكبير إلى 1245م.

199 - قال ابن الأبّار:

أدرك بخيلك -خيلِ الله- أندلسا	إن السبيل إلى منجـاتها درســـا
تقاسم الروم -لانالت مقاسمهـم-	ولا عقائلها المحجوبة الأنســـا
وفي بلنسية منـــها وقرطبـــــة	ما ينسف النفس أو ينزف النفسا
طهر بلادك منهم إنهم نــجــس	ولا طهارة ما لم يغسل النجـــسا

لقد لبى السلطان الرغبة وأرسل أسطولا لنجدة غير أن ذلك لم يجد نفعا لتأخره فتمكن العدوّ من الحيلولة دون إنزال القوى التونسية.

200 - دائرة المعارف الإسلامية، ج 5 ص 509-511. وتاويت: تاريخ سبتة 1982.

مدن على ضفتي المضيق:

- الجزيرة الخضراء (245هـ-859م): استولى المجوس عليها.

355هـ-956م إرساء النورمان قرب الجزيرة.

641هـ-1244 استولى ألفونس 11 على الجزيرة.

- سبتة [201] (818هـ-1415م): أخذها جون الأول ملك البرتغال.

- جبل طارق (660ه-1262م): في قبضة ألفونس العاشر.

- طارفة (689ه-1292م): سقوط طارفة في يدي شانسو الرابع.

شواطئ المغرب في قبضة البرتغال:

اختلت الموازين في بداية القرن 15 وصفا الجو للصلبيين فخططوا لإحتلال شواطئ المغرب بعد أن زال المرابطون والموحدون ولم يبق مجاهد...

بدأوا بمعاهدة تردوزيلاس (Tordosilas) سنة 1492م سنة سقوط الأندلس وبموجبه حدد اقتسام سواحل المغرب الأقصى والأدنى فأخذ البرتغال المدن الساحلية الجنوبية مثل أصيلا وأقادير وطنجة 1471م وذلك بدون مقاومة ثم عززوا سبتة والقصر الصغير كل هذا والمغاربة في صمم ولم يستطع المسلمون منازلة الطواغيت وقد تشتت كلماتهم.

وكان للقشتاليين جنوب ساحل المغرب المقابل لجزر الخالدات كما استولوا على مليلة 1497م وصخرة باديس 1508م.

ولم يبق للمسلمين سوى البكاء على الفردوس المفقود.

أما المغرب الأوسط فكان المرسى الكبير(1505م ووهران 1509م وبجاية 1510م وحلق الوادي 1535م).

تزعم المقاومة سكان المناطق المجاورة "لجيوب" النصارى وكذلك رجال الدّين واختفى الحكام.

- *الحملة على الجزر:*

انتقل الصراع إلى الجزر المتوسطية عندما اعدّ الروم عددهم وعدتهم على اخذ ما ضاع منهم في السابق وبعدما تيقنوا أن الكفة مالت في صالحهم. فسقطت هاته

---

201 - كانت سبتة بفضل موقعها تأقلمت مع شؤون البحر وكان لها اتصال مستمر مع العدوة الشمالية تتابع كل ما يحدث في شبه الجزيرة وعندما تبلورت نوايا فردينان 3 (1252م) وهو يعد الحملة على المغرب الأقصى. نهضت سبتة 1279م للمواجهة فأقبل قاضي البلدة على تجنيد مواطنيه للقيام بحملة على شبه الجزيرة فاستدعى جميع المحاربين والشباب والشيوخ القادرين على حمل السلاح وأعفى من الجهاد النساء والأطفال والمقعدين الذين أصابهم شلل.

الواحدة تلو الأخرى. لقد بدأت الكرة على قبرص [202] فاستولى عليها العدو بعد حرب ضارية استغرقت عدة سنوات(1061م-1086م) فاستسلمت الجزيرة.

ثم جاء دور صقلية [203] فقد اغتنم الغزاة خلافا حدث بين طوائف الجزيرة. وكانت سرقصطة وقطانية من نصيب أحد المتصارعين فاستدعى النورمان وسلمهم الجزيرة. وجاء هـؤلاء واستعـصى عليـهم الاكـتساح بسبب مقاومـة الأهالي واستشهـد من المسلمين العديد قبل أن يأخذها المغيرون (484هـ) وهاجر بعض السكان إلى مصر وإلى القيروان (1091م) وكان ما حل بالجزيرة بمثابة الزلزال إهتز له المشرق والمغرب. وصفا الجوّ للجمهوريات الإيطالية مثل جنوة والبندقية وأنشأ النورمان ببلرمو ومسين فاحتكروا التجارة في القرن الثاني عشر مع بلدان المغرب.

وامتلأ ديوان ابن حمديس الصقلي بذكر هذا الفردوس المفقود وبالتحريض على مقاومة المحتلين ويحث على عودة الأهالي إلى الجزيرة وأن لا يغريهم الاغتراب والنزوح إلى البلدان الأخرى بل يطالبهم بالصمود.

قال يخاطب مواطنيه:

بني الثغر لستم في الوغى من بني أمي ... إذا لم أحل بالعرب منكم على العجم
دعوا النوم إني خائف أن تدوسكـم ... دواه وأنتم في الأمـان مع الحلـم
وقرع الحسام الرأس من كل كافـر ... أحب إلى سمعي من النقر في اليـم

وطلب منهم أن يتمسكوا بوطنهم حتى يموتوا فيه ولا يلجأوا إلى الاغتراب وهو ذل أينما كان فقال:

لله أرض إن عدمتم هواءهـا ... فأهواؤكم في الأرض منثورة النظـم
وعزكم يفضي إلى الذل والنوى ... من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي
فإن بلاد الناس ليست بلادكم ... ولا جارها والخلم كالجار والخـلـم

وتحسر لفقدان الحرية لأرضه حتى استحال الرجوع إليها:

ولو أن أرضي حرة لأتيتها بعزم ... يعـد السير ضـربـة لازب
ولكن أرضي كيف لي بفكاكها ... من الأسر في أيدي العلوج الغواصب

---

202 - تقدم ذكر فتحها على يد معاوية بن أبي سفيان (950م) .

203 - فتحها أسد بن الفرات أيام زيادة الله الأغلبي. ولم يكن أسد بحارا بل كان فقيها مالكيا وقاد جيشه رغم معارضة حاشية الأمير.

وأدمى قلبه مظاهر التنصير متبوعا بإذلال المسلمين:

كيف وقد سيمت هــوانا وصيــرت مساجدها أيدي النصارى كنـائسا

إذا شاءت الرهبان بالضرب أنطقت مع الصبح والإمساء فيها النواقسـا

أرى بلدي قد سامــه الروم ذلــة وكـان بقــومي عــزه متقــاعسا

وكانت بلاد الكفـر تلــبس خوفـه فأضحى لذاك الخوف منهن لابسا

204

ثم احتلوا مالطة وقوصرة واقريطش.

- *الجزر الشرقية (الباليار)*:

لم يبق للمسلمين في المتوسط سوى هذه الجزر وعددها4 وهي مايورقة، مينورقة، ابيزاو فرومنترة، وهي مقابلة للساحل الشرقي للأندلس وقد أغرى موقعها الممتاز (في وسط الحوض الغربي والقرب من الأندلس وسواحل المغرب الأوسط). 205

وكانت تحت حكم أمراء دانية إلى 1015م وبعد وفاة مجاهد 405هـ-436هـ/1013م-1044م خلفه ابنه علي ثم عبد الله المرتضى (486هـ-1093م).

وبعد سقوط الأمويين 1009م وكثر الاهتمام بالبحرية وخاصة في عهد ملوك الطوائف غير أنه في 1015م ضاعت الجزر من أمراء دانية.

وعندما انتهى حكم المرابطين قام بنو غانية الذين عارضوا الموحدين بالجزر وهم: علي وقراقش وعلي بن يحي الذين تزعموا الغزو البحري وعطلوا نشاط الملاحة.

ثم حكمها الموحدون من 599هـ - 726هـ) 1202م - 1228م (وقد عصفت بالجزر ريح بني غانــية: علي وقــراقــوش ثــم علي بــن يحيى تضاعــف نشاطهــم البحــري حتى تقلصت التجارة.

وكان حلم النصارى ثابتا فأبو إلا أن يضموا الجزر. وبعد أن حاول المجوس احتلالها 255هـ-869م تكتل عليها حاكم بيزا وكطالونيا.

---

204 - فتحها المسلمون 827م-828م إثر مغامرة تبناها أندلسيون وقد طردهم الحكم بعد شغب نجم بضواحي قرطبة. وفرت الجماعة إلى الإسكندرية واستقروا بها إلى حين. ومارسوا الغزو البحرية فطردوا منها أيام الخليفة العباسي المأمون (وكان يحكم مصر عبد الله ابن طولون) واشترط عليهم أن لا يصحبهم مصريون في عملياتهم البحرية. فنزلوا بالجزيرة وعينوا ملكا عليهم وأسسوا أسطولا هاما ودامت غزواتهم من 840م إلى القرن العاشر فضربوا جنوب فرنسا ومرسيليا 842م و826م وأرل arles 968م.و عجز إمبراطور القسطنطينية على إخراجهم من الجزيرة إلى أن تمكن ذلك على يد نيسفور الدمستق (350هـ-961م). غير أن الزهري يقول: لم يملك المسلمون الجزيرة قط (كتاب الجعرافية 176).

205 - فتحها العرب في عهد خلافة بني أمية ثم وقعت في يدي ملوك الطوائف وخاصة مجاهد العامري ثم استولى عليها المرابطون سنة 509-1116 ثم ملكها بنو غانية.

ثم تحرك إليها جاك الأول ملك ارغون الذي أنهى الوجود الإسلامي بادئا بميورقة ثم اليابسة 632هـ-1235م ثم مينورقة 686هـ-1287م.

ثم قام ملك اراغون الفونسو ففرض أتاوة على الجزر. وانتهى أمرها في 1344م.

وباستحواذ الروم على الجزر خلا الجو لهم في البحر وانفردوا بالملاحة تقريبا ولم يبق للمسلمين إلا مجارات السواحل.

وشاهد بن جبير المتوفى(614هـ/1217م) هذه النكسة الكبرى بخروج المسلمين من الميدان فأفادنا الرحالة بما عاينه وما عاناه عندما همّ بالسفر قاصدا البقاع المقدسة. فخرج من سبتة (578هـ/1183م) على متن مركب نصراني رغم مكر القراصنة إلى أن أرسى بالإسكندرية ثم استأنف السفر عن طريق البر. رغم مشاق الصحراء - وكان له أن يبحر من قلزوم وهو الأهون- إلا أن ذلك تعذر بسبب الأخطار بعد أن استولى الصليبيون على البحر الأحمر فعاثوا فيه وطاردوا مراكب المسلمين فنهبوا واسروا وقتلوا...

ووصف ابن الخطيب هته المضايقة وهاته الأخطار قائلا " مع ترقب هجوم العدو في الرواح والغدو لاجتيازه (المركب) على عدة من بلاد الحرب. دمر الله سبحانه من فيه وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب. لاسيما مالطة الملعونة التي يتحقق من خلص من معرتها أنه أمدّ بتأيد الله ومعونة فقد اعترضت في لهوات البحر الشامي شجا، وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا..."

وأصبح الأسطول المصري عاجزا حتى على مرافقة السفن التجارية وبعد أداء الفريضة رجع بن جبير على طريق البر إلى الشام ثم ركب مركبا أخر نصرانيا للعودة ولقي في طريقه ما لا يقل عن عشر سفن كلها للعدو ولم يصادف واحدة للمسلمين.

وكانت نتائج هذا التراجع أن أصاب الملاحة فتور ولم يبق لها خبر يذكرحتى قال كسافييه دي بلانهول xavier de planhol "وفي منتصف القرن11 أصبحت الهيمنة المسيحية كاملة على النقل البحري... وعلى متن السفن المسيحية كان حجيج المغرب القاصدون الإسكندرية وذلك حتى نهاية القرن 15م) الإسلام والبحر...) 206

206 - Au milieu du 11e s. la prépondérance chrétienne devint total en matière de transport maritime c'est sur des navires chrétiens que s'embarquaient les pèlerins du magreb.Jusqu' a la fin du XVe.s
les Rifains se rendaient a Alexandrie et a Beyrouth.

حالة المسلمين والوضع الجديد:

لم أجد أحسن من وصف شكيب أرسلان للمصير المحتوم إذ قال " انصاع المسلمون انصياع الكواكب عند انكدارها، وذلك بتجردهم عما كان قد كساهم الإسلام من فضائل... انغمسوا في الشهوات البدنية وانصرفوا إلى السفسفات الزمنية... واشتغل أمراؤهم... وتخلّف العلماء عن تقويم مبادئهم وردعهم عن فسادهم فمشى الفساد في جنباتهم وتنازعوا ففشلت ريحهم ونالوا من اعوجاج مسالكهم (حتى) صاروا يرضون بكل حطّة ويسلكون من الهوان كل خطة... وصاروا تابعين بعد أن كانوا متبوعين وسادهم من كان لهم من جملة الخول.."[207]

البحرية في عهد التراجع:

أصاب الملاحة شرقا وغربا تراجع وفتور مخيف قلّص من النشاط العسكري والتجاري فزالت السطوة وعمت البلوى واكتفى المسلمون بمحاذاة الشواطئ خائفين مكر الروم.

وإذا عدنا للأندلس لاحظنا الحملة على المسلمين تزيد شراسة. فعندما توفي أبو يعقوب المنصور في معركة شانترين ضد ألفونسو اعتلت دولة الموحدين واستولى الجلالقة على جزء كبير من البلاد. وفي ذلك الوقت أفلت الحوض الغربي للمتوسط من يد المسلمين ولجأ من كان يشق البحر من المغرب إلى المشرق إلى سيف البحر تاركين هذا الأخير لأنهم - كما قال ابن خلدون - نسوا عوائد البحر بكثرة حتى صار المسلمون أجانب...

إلاّ أنّ هناك وميضا يلمع الحين بعد الحين ينسي المصير المؤلم. فمن بين ملوك الطوائف الذين فطنوا لدور الأساطيل في حماية الشواطئ المعتصم بالله أبو يحي ابن صمادح الذي كان يملك مجموعة من السفن "الحربية "رغم انكماش ولايته وقلة جبايته وكان مشغولا بترميق أساطيله وتنميق أباطيله ولم تمتد مهمته إلى مزاحمة ملك في ملكه ولم تزد على مراعاة أمر جواريه وفلكه [208] وكانت محاولات لفك نصيب من هذا البحر تعيد النفس ويرد بها المسلمون على ضربات عدوهم كالتي حدثت بعد سنوات من وقعة العقاب عندما استطاع بنو مرين عبور المضيق مستخدمين

---

207 - الحلل... ج 1 المقدمة.

208 - الفتح ابن خاقان. قلائد العقيان ص 53.

مراكب سبتة (1275م) ومحوا ما جرى لهم في وقعة العقاب [209] غير أن هذه المبادرات كانت قليلة.

تعد طليطلة من أمصار الأندلس على نهر تاجوة وسط شبه الجزيرة وقد يتساءل القارئ ما طليطلة (وهي المدينة القارية) بمأساة البحر والبحرية؟ لقد رام الإسبان هاته المدينة الهامة مغتنمين أحوال البلاد المتدهورة. وانقضوا على شانترين "قاصية أرض الإسلام" (478هـ/1085م).

وتحرش الجنويز على طرطوش فأخذوا المدينة الساحلية (543هـ/1148م) غير أن أعظم فاجعة حلت بالمسلمين هي سقوط طليطلة [210]. ففي خريف (477هـ/1084م) كان القشتاليون على أبواب المدينة وضربوا الحصار حولها ولم ينفع اقتراح ولا مفاوضات والشدة تزداد يومًا بعد يوم ما يزيد على 9 أشهر واستسلمت المدينة (1085م) بعد 370 سنة من الحكم الإسلامي.

المصير المحتوم:

كان الأسطول الإسباني يتقوى باستمرار حتى صار الأول في غرب المتوسط ولم تنفع ما قام به هؤلاء وكانت ردود فعلهم عابرة ولم ينجح صلاح الدين في وثبته (1177م-1179م) ولا مبادرة المماليك بمصر في تأسيس قوى بحرية ذات وزن ولم يفد ما قامت به الدول الكبرى في المغرب لإيقاف زحف النصارى وقد تضافرت جهودهم لبسط الاحتلال ووصلوا مياه شمال إفريقية ثم حطوا الرحال على شواطئه. فلم تجد بحرية الموحدين (1130م-1269م) وقد استولى العدو سنة 1241م على بلنسية ومورسية وحوّلها إلى دويلات تابعة خاضعة حينما أمست دولة عبد المومن في غروب شمسها (1224م/1269م) ولم يقدر أسطول بني مرين (1258م-1471م) ولا سفن بني حفص أصحاب تونس (1236م-إلى نهاية القرن 15) ولا مراكب بني الأحمر أصحاب غرناطة (1232-1492) على توقيف هذا السيل المدمر.

---

209 - وقعة العقاب 609هـ-1212م Las Navas de Tolosa (محت هذه المعركة ما تكبده النصارى في هزيمة الأراك 1 (Alarcos) 1195/1196 قال عبد الواحد المراكشي "داهمهم ألفونسو الأدفنش وهم على غير أهبة فانهزموا وقتل من الموحدين خلق كثير... ولم يجر على مسلمي الأندلس في تاريخهم الطويل مثل ماجرى عليهم في هذه الواقعة المشؤومة التي كانت نذيرا بذهاب ملكهم وانقراض عقبهم في تلك البلاد "(المعجب ص 321).

210 - كانت أكبر فاجعة حلّت بالإسلام سقوط طليطلة في خريف 1185 بعد 370 سنة من وجود المسلمين.

كانت أساطيل المسلمين في كل بلد تسير من سيئ إلى أسوأ تعاني خطرين يصعب التغلب عليهما:

أ)-عدو متربص بهم لا يرحم وقد امتدت أيديه إلى مختلف الجهات فكانت هجوماته لا تعرف نهاية ولا هوادة.

ب)- وبحر لا يؤتمن هيجانه ولا تسكن أمواجه ومراكب ذلك الوقت لا تتحمل غضب الأعاصير وعواصف الرياح، فكان لهذه المراكب الهشة القديمة مصير بئيس فالخسائر والإتلاف... وإن لم يكن غرق فعطب مكلف وتعطيل يطول.

فمن ابشع المآسي تلك الزوابع التي دمرت اكثر مما دمره العدو. وهذه أمثلة من بين الكوارث التي أصابت البحرية:

في سنوات 831-835-849-900م: تحطمت أساطيل بني اغلب بأكملها من بين 107 قطعة خرجت لغزو ساردينية.

-842م:اتلف اسطول عباسي في الحوض الشرقي.

-956م-957م: شتتت العاصفة مرتين أساطيل الفاطميين قبالة بالرمو.

-958م: كارثة جديدة قبالة قوصرة.

-996م: تحطّم الأسطول الفاطمي (المصري) على صخور شواطئ الشام.

-1105م-1110م: تجددت الكوارث أثناء عملية ضد الصليبيين.

-1110م-1122م: تجدد نفس الدمار.

وفي الأندلس:

- 878م-879م: اتلف أسطول بني أمية أمام جليقية.

فشل مجاهد العامري في غزوه ساردينية وضياع أسطوله (1016م).

-1250م: مجموعة كبيرة من سفن بني زيري (700) خرجت شتاء فبددتْها العواصف البحرية.

-1250م: أرسل الأسطول الفاطمي لنجدة صقلية -وقد هاجمها الروم- فدمر على آخره بسبب زوبعة هوجاء.

وعندما دخل البحر في حوزة النصارى وأقفلوا أبواب الملاحة على غيرهم عبر الشاعر الحصري وكان يقطن بسبتة على هذه المضايقة الخانقة وقد دعاه يوما المعتمد ابن عباد لزيارته في إشبيلية فقال:

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى   وأعجب للأسود عيني كيف لم تشب
البحر للروم لا تجري السفين به   إلا علـى غـرر والبـر للعـرب 211

لم يكتف الصليبيون بالغلبة في الأندلس وراحوا يواصلون الزحف إلى المغرب الأقصى أولا ثم الأوسط ثانيا بدعوى محاربة القرصنة ولكن الهدف كان خنق ما تبقى من حركة إسلامية وتحويل الحوض الغربي إلى بحيرة إسبانية. وحطوا أرجلهم في سبتة 1415م وجعلوا بها حامية،وبعد سنوات (أكتـوبر 1488م) نزلوا بطنجة ثم مليلة 1497م ثم تسلطوا على الواجهة المحيطية فاحتـلوا سلا ثم أغراهم المغرب الأوسـط فاحتلوا في مدة قصيرة المرسى الكبير 1505م ووهران 1509م وشجعهم على هذا الإقدام دولة بني زيان ودفعتهم أطماعهم نحو وسط هذا المغرب فاحتلوا البنيون وبجاية 1510م.

وكيف الأمل في نهضة إسلامية والأسطول الإسباني يتقوى باستمرار حتى صار الأوّل في الحوض الغربي من المتوسط؟

---

211 - تتابعت مرثيات المدينة وأشهرها الرائية الكبرى (70بيت) مطلعها:
لثكلك كيف تبتسم الثغور   سرورا بعدما بئست ثغور
كانت مملكة بني ذي النون وأعمالها واسعة الرقعة (الثغر الأوسط) عند انهيار الخلافة.

أسرار غلبة النصارى

لنهضة الغرب المسيحي الطويلة النفس والتي فاجأت العالم في حدود القرن العاشر وما بعده أسباب عديدة أهمها:

المخطط البعيد المدى للقضاء على الوجود الإسلامي وضربه في السواحل وجزر المتوسط لتتحقق له الهيمنة التامة وكانت طموحاته واضحة لا تخفى إلا على من لا يبصر.

انتهز العدو تفوقه العسكري والمادي وجند مقاتلين من مختلف الجهات واللغات وصار الجميع متيقن بالغاية المنشودة ولم توقفه المشاكل المالية التي مكنته من العتاد المتطور والسلاح الكافي وشبكة الاستخبارات وخدمات الجواسيس. وكسب الخبرة والمهارة في الملاحة ومعرفة المعارك البحرية. ومما زاده قوة تحالف الأمم المسيحية والتضامن بينها لتطابق المصالح الشيء الذي لا يحلم به المسلمون فكانت قوى بيزا وجنوة والبندقية وجيوش بيزنطة تحارب كرجل واحدا لأن عدوهم واحد. فلما هم صلاح الدين الأيوبي باسترجاع ثغور الشام وتطهير بيت المقدس " تتابعت أساطيلهم (النصارى) بالمدد والأقوات لتلك الثغور المحتلة وجاءهم العون من كل بلد ولم تبخل البابوية بالمال وبالمباركة.

وفي نفس الوقت رفض الخليفة الموحدي مساعدة من استنجد به ولم تستطع سفن الإسكندرية على دحر الغزاة لعجزها ولقلة عددها وتواضع عددها وكان وضع المسلمين يختلف تماما عما ذكرنا فقد قضى عليهم التخالف والتفرق والتحارب التهاون فكان قادتهم أبعد الخلق على التطور ومجاراة العصر" وكل يشغله يومه عن غده " فبينما تنظر الصناعة تولي اهتمام قادة الهجوم بإحضار المواد الضرورية وإغراء البحريين ودرس المخططات على ما يقتضيه الزمان والمكان كان حكام المسلمين يتسابقون على بناء البروج والقصور ليغمرها الطرب والمجون فأدى الإهمال وقصر النظر إلى الهزائم النكراء. وقد أصاب بن حوقل إذ قال في حقهم:" فسدت النيات وافتتحت الأعمال وارتفعت البركات ولج الملوك في الظلم والاستمطار بالأموال العامة وفي الإصرار على المعاصي والطغيان فهلك العباد وتلاشت البلاد.

وانقطع الجهاد. أما الحكمة وحسن التدبير والسعي للتجديد في تنظيم البحرية وتقويتها لتكون القوة الضاربة تلك البحرية التي رفعت دولة المرابطين والموحدين إلى الذروة التي حسدهم عليها الأعداء فذاك عهد مضى ولم يرزق المسلمون عبد المؤمن ثانيا.

لقد تداعت أركان الدولة وتقوضت دعائمها ودب في جسدها الداء العضال فتحول الحماس والنعرة على البلاد إلى عقلية مستسلمين مذهولين يائسين راضين بكل ما يأخذه العدو.

كانت البحرية في مرحلة الانحطاط بحرية الصدف والمناسبات يتعلق مصيرها بأهواء الحكام ومزاجهم تظهر حينا وتختفي أحيانا

فلولا غارة المجوس على سواحل الأندلس في القرن 9م لما هب بنو أمية لإنشاء السفن لمطاردتهم ولولا قرب صقلية من شواطئ تونس لما فتح بنو الأغلب تلك الجزيرة.

ولا ينكر أن بعضا منهم حاول رفع التحدي لكن المبادرات كانت عشوائية يعوزها قبل كل شيء تغيير عقلية المجتمع الذي ما زال ينظر في مجمله نظرة الازدراء للبحر ولرجاله.

وكانت السفن الإسلامية لا تضاهي في شيء سفن العدو الذي يغزوهم وكانت بطيئة الحركة ثقيلة المناورة لا تتوفر فيها صفات ما يملكه غيرهم في طليعتها الهيئة التي بها تكون أو لا تكون من صيانة وإصلاح. وبقي المجتمع على بداوته وذكرت بعض الوثائق زنهم شرعوا ذات يوم في بناء مركب ثم تخلوا عنه قبل إتمامه وقد مات فيهم كل وعي مادام الناس يصنفون البحارة في الطبقة السفلى لا تحتاج إلى تشجيع أو تقدير وذهب الازدراء ببعضهم إلى أن صاروا يمتنعون عن مصاهرتهم أو معاشرتهم وتذكر بعض الوثائق أنه عندما غزا نصارى قبرص الإسكندرية وقام المماليك بإعداد أسطول على عجل ثم تخلوا عنه فحدث في دار الصناعة ببيروت أن توقف العمل لأسباب مجهولة تعطل المشروع فهبت الغوغاء لنهب الورشة وما فيها من خشب وآليات ومواد أساسية كالدهن والقار والأشرعة والحبال والمجاديف.

واصطدم بُناة المراكب بالحاجة إلى الخشب اللازم فالمحلي لا يكفي سواء كان في مصر أو الشام أو المغرب والمستورد نادر لخطر الملاحة وموقف الكنيسة التي حرمت بيع الخشب للمسلمين لكونه مادة استراتيجية ولذا كان الاستيراد من الهند أو البندقية أو المغرب يكاد يستحيل وسفن العدو بالمرصاد.

وحاول ابن خلدون في فصل قيادة الأساطيل إيقاظ المسلمين من غفلتهم قائلا: "لابد لهم من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفرنجية فإن ذلك يكون في الأساطيل".

كلمة تفجع

ضاعت "الدرة الدهماء" نتيجة الخلاف على الخلافة والطمع الذي يعمي وتكررت الهزائم وتأججت الفتن وتواصلت الحروب وعمّت الخيانات (حتى كانت الدماء السائلة أنهارا والجماجم الطائرة أسرابا وصارت وحدة الأمس إلى خبر كان والعدو يطول وهم يقصرون في كل يوم لهذا التقدم ولذاك التهدم.

لقد ألفوا الرخاء والبذخ والزقة والقينتة فصعب عليهم الشظف واستحال عليهم أن يتدبروا مخرجا لسوء حالتهم ولا يسمعون لغير أهوائهم ورحم الله زمانا قال فيه "تناثرو بددا وتطايروا قددا" حتى جرفهم سيل ماله سد.

ولكل بلدة ودولة أمير ومنبر سرير فانهزموا بلا سيف

. قال شاعر:

وتفرقوا شيعا فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر

لم تخف أهمية البحر على أحد. لقد أجمع الخبراء وذوو المعرفة بشؤون المتسعات وقالوا: "إن مفتاح البحر هو مفتاح العالم"[212] وقال الأميرال تودس: "هناك قانون يحكم التاريخ: كل شعب ملك البحر عرف الثروة وتنعّم بالازدهار. وكل شعب ضيّع السيطرة على البحر خسر الغنى والحرية في آن واحد."[213]

ويرجع تأخر المسلمين في البحرية والبحار لأنهم في نظر Xavier de Planhol لم يعرفوا أبدا كيف يكسبون ولا كيف يحافظون على نصيبهم من المتسع.

ولو انطلقوا بحزم وعزم على ركوب الماء لِما كان لهم من سطوّ فيه، لأخذ مصير العالم مجرى آخر لا شك في ذلك.[214]

ولهذه الحالة في نظر هذا المؤلف أسباب منها:

أن المسلمين في حالة الحرب أو السلم لم يُغرهم البحر ولم يكن لهم شهرة فوق الماء.

ورغم هذه المبالغة في الحكم على المسلمين الذين تعددت فتوحاتهم البحرية وهيمنوا مدة على الأبيض المتوسط لم يكتب لهم في النهاية مواصلة الحملات لأن المجهود المالي والبشري كان فوق طاقتهم...

212 - توماس كمبانيلا - في بداية القرن 17.

213 - Bulletin de l'académie du Var, 1991 p 229.

214 - Xavier de Plan Hol. p 479-487

- مصادر ومراجع عربية -

- الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم السبتي) الروض المعطار في أخبار الأقطار.
- القلقشندي (أبو العبّاس أحمد المتوفى 821هـ / 1421م) صبح الأعشى في صناعة الإنشا (14 جزء- القاهرة 1338 أنظر ج3).
- ابن جبير(محمد بن أحمد 614هـ /1145م-1217م) رحلة...
- ابن عذاري البيان المغرب في أخبار المغرب.
- ابن خلدون (عبد الرحمن) كتاب العبر... المقدمة - باب قيادة الأسطول
- ابن الخطيب (لسان الدين) أعمال الأعلام.
- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي) كتاب صورة الأرض. جزأن ط بيروت.
- ابن خاقان (الفتح) قلائد العقيان... في محاسن الأعيان ط بولاق 1283م.
- المقري (شهاب الدين بن أحمد التلمساني) نفح الطيب... 7 أجزاء.
- المقريزي (زكاري بن محمد) آثار البلاد وأخبار العباد.
- عبد الواحد المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب ط الأولى 1949/1368م.
- القزويني (زكرياء بن محمد) 682هـ/ 1283م عجائب المخلوقات.
- ياقوت الحموي (شهاب الدين) 627هـ / 1229م معجم البلدان.
- ابن منظور (محمد جلال الدين) 630هـ - 711هـ/ 1232م -1311م لسان العرب: البحر ج 1 ص 323 - 723.
- الشاذلي النيفر (محمد) الأسطول في اللّغة والتاريخ (مقالات في مجلة الثريا - تونس 1944م-1945م).
- عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام في حوض البحر الأبيض المتوسط البحرية الإسلامية في المغرب الأندلس.
- ماهر (س) البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية - القاهرة 1967م.
- أحمد (أ.ر) تاريخ فن القتال البحري في البحر المتوسط- العصر الوسيط.
- خوري إبراهيم العمدة الماهرة في ضبط العلوم البحرية - دمشق 1970م.
المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر - دمشق 1970م.
- عبد الله عنان عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس. جزءان، القاهرة 1965م.
- ياسين الحموي (محمد) تاريخ الأسطول العربي.
- درويش النحيلي السفن الإسلامية على حروف المعجم (بيروت).

- عمار عياد المبروك البحرية في عهد الموحدين (ر.ماجستير -ليبيا 1991م).
- رفعت (محمد) تاريخ حوض البحر المتوسط، 1959م.
- محمد البشير الكافي قاموس المصطلحات البحرية - بيروت 1981م.
- هوليرياخ، البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية - تطوان 1954م.
- القيطاني (عيسى) دليل المختار في علم البحار. الكويت 1383هـ / 1969م.
- الموسوعة العربيّة العالميّة ج 4: البحر، ص 191-200 البحرية، ص 201-208.

دور صناعة السفن في المغرب والأندلس المغرب الأدنى:

تونس

المغرب الأوسط: جيجل - الجزائر - أرزيو - هنين

المغرب الأقصى: بادس - سبتة - المعمورة - طنجة - القصر الصغير

الأندلس:

الواجهة المتوسطية: طرطوش - دانية - المرية.

الواجهة المحيطية: الجزيرة الخضراء - سلت - قصر أبي دانس.

BIBLIOGRAPHIE OCCIDENTALE

- ARKOUN (M.), « L'expansion de l'Islam dans la Méditerranée occidentale », R.O.M.M, 1967, pp 199-202.

- BAUTIER (R.H), Les grands problèmes politiques et économiques de la Méditerranée médiévale », Revue Historique, CCXXXIV, 1965, pp 1-28

- BIROT (P) et DRESH (J), "La Méditerranée et le Moyen Orient, t-1, Méditerranée Occidentale, géographique physique et humaine… », P.U.F, 1953.

- BRUNOT (L.) La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé, Paris 1921.

- CAHEN (Cl.), « Ports et chantiers navals dans le monde méditerranéen jusqu'aux croisades », N.M.A.M., I, pp. 229, 313, 978.

- CHALMETA (Pedro), « La Méditerranée occidentale et al Andalous de 934 à 941 ». Les données d'Ibn Hayyan, revista degli studi orientali, 1976, L, pp.337-357.

- COURTOIS (Christian), « Remarque sur le commerce maritime en Afrique au XIème s. », pp. 51-59 (Mélanges d'histoires et d'archéologie de l'Occident Musulman, II, Hommage à G.Marçais, Alger, 1957).

- DAMOUL (A.), « Les épaves sarrasines, contribution à l'étude des techniques de constructions navales musulmanes et méditerranéennes », pp. 152-165. L'homme méditerranéen et la mer. Actes du 3ème congrès international d'études et des cultures de la Méditerranée occidentale, Djerba, 1981.

- DENECHEAU (J.H), MARAIS (J), GIREAULT (J), MAILLARD (B), et TRIOLLET (M.L), « La Méditerranée arabe et le Proche Orient au XXème siècle », (Dossier Histoire P.Goubert), Masson, Paris 1976.

- DEVIC (L.Marcel), « Le pays des Zendj ou la côte oriental de l'Afrique au Moyen Age, d'après les écrivains arabes, Paris, 1883.

- DUFOURQ (Ch.E), « Méditerranée et Maghreb du XIII au XVIème siècle », Revue d'histoire et de Civilisation du Maghreb, Alger, 1967, pp. 75-87.

- DUFOURQ (Ch.E), « Commerce du Maghreb médiéval avec l(Europe chrétienne et marine musulmane », Congrès d'Histoire et de civilisation du Maghreb, Tunis, déc 1974.

- DUFOURQ (Ch.E), La question de Ceuta au XIIIème. siècle, Revue Hespéris, 1955 , 1 et 2 , pp.67-127.
- FERRAND (G), « Introduction à l'astronomie nautique arabe », Paris, 1928 in 8.
- FERRAND (G), « Le pilote arabe de Vasco de Gamma et les instructions nautiques arabes au XVème siècle », Annales de Géographie, n° 172, 15 juillet 1922, pp. 289-307.
- GATEAU (Albert), « Quelques observations sur l'intérêt du voyage d'Ibn Jubayr pour l'Histoire de la navigation en Méditerranée au XIIème siècle », Revue Hesperis, 1949, T. XXXVI, 3/4T, pp. 89-312.
- GROSSET – GRANGE (H.), « Les navires arabes du Moyen-Age », Revue Arabica, t. XIX, fasc. 3, 1977, PP. 240-251.
- GROSSET – GRANGE (H.), « Les traités arabes de navigation », Revue Arabica t.XIX, fasc. 3, 1972, pp. 240-254.
- GROSSET – GRANGE (H.), « La science nautique arabe de jadis » Histoire des sciences arabes, 3 vol. Paris, 1997, t.1, pp. 223-269.
- GROSSET – GRANGE (H.), « La navigation arabe de jadis », Revue de l'Institut français de navigation, Paris, Avril et Octobre 1969.
- GUICHART (P), Les débuts de la piraterie andalouse en Méditerranée ROMM, XXXV , pp. 57-73.
- GUICHART (P) Animation maritime et développement urbain des cotes de l'Espagne orientale et du Languedoc au Xe. S , 1978 pp 187-201 (occident et orient au Xe.s –IXe congres de la société des historiens médiévistes de l'enseignement public, Dijon 2-4-juin 1978 –paris
- HABERT (C.Amiral), « Les premiers jours de la guerre navale », Revue Maritime, Juin 1920.
- JEHEL (Georges), « La Méditerranée médiévale de 350 à 1450 », Paris, 1992.
- LEVI PROVENCAL (E), « Histoire de l'Espagne musulmane 3vol Paris
- LOMBARD (M.), « Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée orientale musulmane (VII-Xième s.) ». « Le navire », Travaux du 2ème colloque d'Histoire Maritime, 1957.
- MERCIER(M), Le feu grégeois , Paris- Avignon,1952 PARIS (P), «Voile latine ? Voile arabe ? Voile mystérieuse?», Revue Hespéris, 1949, pp 69-96.
- PICARD (Christophe), « L'Océan Atlantique musulman, de la conquête arabe à l'époque almohade », de. UNESCO, Paris 1997.

- PICARD (Christophe). « L'Océan Atlantique musulman, de la conquête arabe à l'époque almohade – Navigation et mise en valeur des côtes d'al Andalous et Maghrib occidentale » (Portugal – Espagne – Maroc).
- PICARD (Christophe). « La mer et les Musulmans d'Occident au Moyen- Age. VIII-XIIIèmes s ». P.U.F. 1997. 253 p.
- PLANHOL X . « L Islam et la mer , la mosquée et le matelot , VII-XXèmes siècle. Paris. 2000 (658 p.)
- RANDOT (Yolande). « Les Musulmans et la mer en Méditerranée occidentale du XIIIème au XVème siècle », Mémoire de maîtrise ès lettres, Université de Paris – Nanterre, dacty., 1978.
- SEBAG (Paul). « Les expéditions Maritimes arabes du VIIIème s », cahiers de Tunisie 1960 pp 73-79.
- SEBAG (Paul). « Les travaux Maritimes de Hasan ibn Nûmaan », Revue IBLA. 1970. 1/25. p41/56.
- SENEC (Ph.). « Provence et Piraterie sarasine », Paris, 1982.
- SOLAL (E). « Au tournant de l'histoire méditerranéenne, l'expédition de Pierre III d'Aragon à Collo (1282) », Revue africaine, 1957. pp.247-271.

ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM (E.I) 2

- Bahriyya (Marine arabe) suppl . 119
  Marine Mamelouk – I . 974 – 978.
  Marine ottomane I . 975 – 978.
- Bahr al Rûm I . 963 – 965 par Dnlop (D.M).
- Dâr el sinâa : méditerranée orientale
  Occident – océan indien II . 132 – 134.
- Safîna . Suppl . 205 - 208 par Kindermann(H).
- Ustûl, p. 1002.et T . VIII , 835-838.

المحتــوى

- مدخل 7

القسم الأوّل البحر لغة وأدبا

- تعريف البحر لغةً أدبا: 13
- أصناف المراكب- الأسطول - التشبيه بالبحر - الكرم- البحر ومحتواه -الغضب- وصف السفن- التكيف (صورة لسفينة بيزنطية تستخدم النار اليونانية).
-البحر والقرآن: البحرين - اليم - السفينة - الفُلك 21
- من القفار إلى البحار 24
- وصف ابن جبير لمرسى مسينة -مميزات البحار
-الأقيانوس بحر الاكتشافات. - دليل فاسكو دي قاما البرتغالي ابن ماجد. - حزب البحر(دعاء المسافر).
-الرّحلات البحريّة وأهوالها المرعبة: 32
- الحريري أبو القاسم محمد- ابن جبير(محمد ابن أحمد) (صورة لخريطة سفر ابن جبير من سبتة إلى الإسكندرية
-عبور البحر الأحمر من عيذاب إلى جدة (صورة لخريطة البحر الأحمر من عيذاب إلى جدة- الخليج العربي: طرق التجار بين البصرة والهند والصين) الوزير التمقروتي يقلع من بجاية قاصدا المشرق(صورة لخـــريطة سفارة التمقروتي إلى اصطنـبول)- أبو العباس المقري - ابن زاكور الفاسي.
- ضحايا الغرق: 41
ابن خلدون يصاب في أهله- ابن حمديس الصقلي يفقد جوهرة- ابن بطوطة يشهد غرقا
- الفتح ابن خاقان يندب فقيدا.
- الشعراء يستاؤون من البحر: 45
- قول الوقشي- قول ابن حمديس الصقلي- قول بعض الشعراء
- قول ابن دراد قسطلي- قول أبي الحسن الحصري- قول ابن الرشيق المــسيلي- قول الأمـير عبد القادر
-قول ابن سعيد أبي عمران الأنــدلسي-
قول أبوجــعفر بن البنــي- قول يحي بن الحكم البكري(الغزال).

- مساهمة المغرب الأوسط في النشاط البحري 89
- عودة إلى الأندلس:كلّ يحلم بالمرية: (خريطة المرية في القرن 10و11
وصورة لمنظر مرية بجانة يعلوه القصر)الموقع والتطور- الحصار الأول
- الحصار الثاني- اهتمام المؤرخين بالمرية
- مشاهير رجالات البحر: 97
الخشخاش البحري - عبد المجيد المغيث الرعيني
- عبد الملك ابن أبي سعيد ابن حمامة- بنو رماحس
- عبد الرحمن بن محمد- ابن تفرتاش- مجاهد العامري
- بنو ميمون- محمد أبو عبد الله - علي بن عيسى
-لب ابن ميـــمون- عبد الله ابن مردنيش- الرنداحي أبو العباس
-أحمد الصقلي- بنو جامع -عمرو بن مسلمة الباجي
- السيّد أبو العلا أدريس بن يوسف
- أحمد بن عمرالمــعروف بـ" الاوز"- عياش بن شرحبيل الحيميري.
- فترة القوة والشموخ 102
- من فقه البحار: فتاوى المعيار للونشريسي 103

القسم الثالث بداية النهاية

- المخطط الصليبي: 113
تسلّط على الشواطئ الإسلامية:الشام - مصر- المغرب الأدنى
(خريطة لجزر الحوض الغربي) - الأندلس - المضيق-
المغرب الأقصى في قبضة البرتغال والإسبان
- الحملة على الجزر جزر الحوض الشرقي الجزرالشرقية (الباليار).
- حالة المسلمين والوضع الجديد: 122
- البحرية في عهد التراجع
- المصير المحتوم: أسرار غلبة النصارى 126
- كلمة تفجع: 129
- مصادر ومراجع:
- مصادر عربية 131
- مصادر غربية 133

- بحر الظّلمات والمحاولات لاكتشاف أسراره: 48
- بعثة الخشخاش- مغامرة المغررين -
ايرلندا وطرق صيد فراخ الأبلينة.
- البحر والخرافات: 51
- كتاب ألف ليلة وليلة- أبو الفتح الإبشيهي وكتابه المستطـرف
- بحـر الزقـاق (في الروض المعطاف والبكري المسالك والممالك)
- موج بحر الزنج (المسعودي مروج الذهب)- جزيرة زابج
(ابن الفقيه أبو بكر ابن أحمد)- منارة قادس العجيبة
(الزهري كتاب الجعرافيا) -جواري البحر(الزهري أيضا).

القسم الثّاني الصّراع البحري
- الحديث الشريف يحثّ على الجهاد بحراً: 58
- التّحوّل السريع: 59
- عهد الخلفاء الرّاشدين - عهد بني أميّة
-اهتمام المسلمين بالمغرب
- المغرب والصراع البحري: 65
بنوالأغلب ومغريات البحر- الفاطميّون وتطوّر البحرية.
- الأندلس مهد البحريّة الإسلاميّة: 70
بنوا أمية والمحيط الأطلسي - هجوم المجوس
(صورة لأحد المراكب التي غزت الأندلس وصورة لمركب
القراصين النرمان).
- الصّراع الأموي الفاطمي.(صورة طرطوش: لوحة تذكارية
احتفاء بتأسيس عبد الرحمن الثالث لورشته بناء السفن)
- المنصور بن أبي عامر:- مجاهد العامري
- محاولة فتح سردينية- فشل المسعى.
- الطوائف الساحلية: 81
- *أهمية البحرية عند المرابطين*
- عبد المؤمن بن علي مطور البحرية: الطريق إلى الحكم
- الصراع على سواحل المغرب الأدنى والأندلس
- الصراع البرتغالي الموحدي.
- وزن البحرية المغاربية: 88
صلاح الدين والخليفة الموحدي

د/مولاي بالحميسي....

من مواليد مازونة سنة 1930 - بعد سنوات الدراسة بتلمسان والجزائر وباريس حصل على التبريز في اللغة والأدب العربي ودكتوراه دولة في التاريخ الحديث - ودخل الجامعة أستاذا وباحثا سنة 1966 إلى التقاعد سنة 2001.

له كتب وبحوث في تاريخ الجزائر العاصمة في العهد العثماني وأخرى في الإيالة إبان الفترة الاستعمارية ودراسات حول كفاح الأمير عبد القادر من خلال الوثائق وشهادات المعاصرين...

غير أن معظم الإنتاج الأساسي ما خصص للبحرية الجزائرية في العهد العثماني والصراع البحري في المتوسط ونشاط الرياس المتميز ذلك النشاط الذي أكسب البلاد مهابة الغرب المسيحي والهيمنة على الحوض الغربي من المتوسط...

أما كتاب "البحر والعرب في التاريخ والأدب" فهو رد على من زعم عن جهل فادح أن العرب ليسوا إلا ركاب الجمال وقطع الفيافي والرمال ولا شأن لهم بالبحر وشؤونه وركوبه وأرزاقه وأهواله. وما أوحى من شعر ونثر. وآن الأوان أن يعنى البحر في التاريخ والأدب معا...

وقد جاء في القرآن الكريم أخبار الأنبياء وخاصة فرعون وما خصصه الحديث الشريف في الحث على مزايا الجهاد البحري حتى كانت الفتوحات الإسلامية بحرا من ألمع ما قام به المسلمون وما سببته من إنشاء دور الصناعة وبناء السفن وما أقدموا عليه من ملاحة في الهادي والأطلسي وما نالوه من سطو وغلبة قبل أن يتفوق عليهم أعداؤهم.

مولاي بالحميسي....

من مواليد مازونة سنة 1930 - بعد سنوات الدراسة بتلمسان والجزائر وباريس حصل على التبريز في اللغة والأدب العربي ودكتورة دولة في التاريخ الحديث - ودخل الجامعة أستاذا وباحثا سنة 1966 إلى التقاعد سنة 2001

له كتب وبحوث في تاريخ الجزائر العاصمة في العهد العثماني وأخرى في الإيالة إبان الفترة الاستعمارية ودراسات حول كفاح الأمير عبد القادر من خلال الوثائق وشهادات المعاصرين.

غير أن معظم الإنتاج الأساسي ما خصص للبحرية الجزائرية في العهد العثماني والصراع البحري في المتوسط ونشاط الرياس المتميز ذلك النشاط الذي أكسب البلاد مهابة الغرب المسيحي والهيمنة على الحوض الغربي من المتوسط.

أما كتاب "البحر والعرب في التاريخ ولأدب" فهو رد على من زعم عن جهل فادح أن العرب ليسوا إلا ركاب الجمال وقطع الفيافي والرمال ولا شأن لهم بالبحر وشؤونه وركوبه وأرزاقه وأهواله. وما أوحى من شعر ونثر وآن الأوان أن يحظى البحر في التاريخ والأدب معا...

وقد جاء في القرآن الكريم أخبار الأنبياء وخاصة فرعون وما خصصه الحديث الشريف في الحث على مزايا الجهاد البحري حتى كانت الفتوحات الإسلامية بحرا من اليم ما قام به المسلمون وما سببته من إنشاء دور الصناعة وبناء السفن وما أقدموا عليه من ملاحة في الهادي والأطلسي وما نالوه من سطو وغلبة قبل أن يتفوق عليهم أعداؤهم.

ISBN 978-9947-24-446-3